(الفصل الأوَّل)

مؤلِّفُ الكتاب (عبدالملك بن حبيب)[1]

اسمه ونسبه:

هو عبدالملك بنُ حَبِيْبِ بن سُلَيْمان بنِ هـٰرون بنِ جَاهِمَةَ[2] بنِ

---

(١) تُراجع ترجمة ابن حَبيب في: تاريخ عُلماء الأندلس: ١/ ٢٦٩، وطَبقات الفُقهاء للشِّيرازي: ١٤٨، ١٦٢، وترتيب المَدارك: ٢/ ٣٠ (بيروت)، و٤/ ١٢٢ (الرِّباط)، والمُقتبَس لابن حيَّان: ٤٥، وجَذوة المقتبس: ٢٨٢، وبُغية الملتمس: ٣٣٧، ومَطمح الأنْفُس: ٢٣٣، وطبقات النَّحويين واللُّغويين: ٢٨٢، ومعجم البُلدان: ١/ ٢٩٠ (إِلْبِيْرَةُ)، وإنباهُ الرُّواة: ٢/ ٢٠٦، والوافى بالوفيات: ١٩/ ١٥٨، والدِّيباج المُذهَب: ٢/ ٨، وتذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٣٧، والعبر: ١/ ٤٢٧، وسير أعلام النُّبلاء: ١٢/ ١٠٢، ودول الإسلام: ١/ ١٤٥، وتاريخ الإسلام: ٢٥٧، والمغني في الضُّعَفَاءِ: ٢/ ٤٠٤، وميزان الاعتدال: ٢/ ٦٥٢، والبَيَان المُغرب لابن عَذَاري: ٢/ ١٦٤، والمُغرب لابن سَعيد: ٢/ ٩٦، والبداية والنِّهاية: ١٠/ ٣١٨، ومرآة الجنان: ٢/ ١٢٢، وإشارة التَّعيين: ١٩٠، وطبقات النُّحاة واللُّغويين لابن قاضي شُهبة: ٢/ ١٠٠، والإحاطة في أخبار غرناطة: ٣/ ٥٤٨، والبُلغة للفيروز آبادي: ١٢٧، ولسان الميزان: ٤/ ٥٩، ٦٠، ٦٢، ١٧٥، وتهذيب التهذيب: ٦/ ٣٩٠، وتقريب التهذيب: ١/ ٥١٨، وبغية الوعاة: ٢/ ١٠٩، وطبقات الحفاظ: ٣٣٣، وطبقات المُفسِّرين للدَّاودي: ١/ ٣٤٧، ونفح الطِّيب: ٢/ ٥، والشَّذرات: ٢/ ٩٠. وغيرها

والحديث عن مؤلفاته في فهرست ابن خَيْرٍ: ٢٠٢، ٢٦٥، ٢٩٠، وكشف الظُّنون: ١٢٣، ٩٠٩، ١١٠٥، ١٩٠٧، ١٩٩٦. وإيضاح المكنون: ٢/ ٤٩٠، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان، وتاريخ التُّراث العربي لمحمد فؤاد سزكين ويُراجع أيضاً المقدمة التى كتبها عبدالمجيد تُركي حفظه الله تعالى لكتابه أدب النِّساء، ومنها استفدت، وأضفتُ إليها فوائد لم يذكرها ولله الحمد والمنَّة.

(٢) في بعض المصادر(جلهمة). و(الْجُلهُمَةُ) ـ في اللُّغةِ ـ: شاطىءُ الوَادي، كَذَا قال ابنُ دُرَيْدٍ =

عبَّاس بنِ مرداس، السُّلميُّ، العبَّاسِيُّ، المِرْدَاسِيُّ، القُرطبِيُّ، الألبيريُّ، الأندلسيُّ، أبومروان.

السُّلَمِيُّ: نسبةٌ إلىٰ «بني سُلَيم» القَبيلة العَربيَّةِ الحجازيَّةِ المشهورةِ، وهم بنوسُليم بنِ منصور بنِ عكرمة بنِ خَصَفَة بنِ قيس عيلان ـ وهو الناس ـ ابن مُضرَ[1].

العبَّاسيُّ: نسبةٌ إلىٰ «العبَّاس بن مرداس السُّلمي» الشَّاعر الصَّحابي المشهور[2] وهو من ذُرِّيته. والعباس ابن الشَّاعرةِ الصَّحابيَّةِ الخَنْسَاء المشهورة.

والمِرْدَاسِيُّ: نسبةٌ إلىٰ والد العباس بن مِرْدَاسٍ، فلمَّا كانت النِّسبةُ السَّابقةُ قد تُلْبِسُ، أضافوا إليها هذه النِّسبة أيضاً ليتَّضِحَ المَقْصُودُ.

والقُرطُبِيُّ: لسُكناه «قُرْطُبة»، وهي معروفَةٌ، واستقراره بها واتخاذها له داراً ووطناً.

= في الاشتقاق: ٥٦٦، وهو في أسماء الرِّجال مشهورٌ. قال الزَّبِيْدِيُّ في التَّاج: (جلهم) «قال أبوهِفَّان المَهْزَمِيُّ: جُلْهُمَةُ: اسمُ رَجُلٍ بالضَّمِّ، منقولٌ من الجُلْهُمَة لِطَرفِ الوَادِي» ونقلَ عن سيبويه «والعَرَبُ يسمُّونَ الرَّجُلَ جُلْهُمَةَ والمرأةَ جُلْهُمَ» وقال: «ومما يُستدركُ عليه [على صَاحبِ القامُوس] جُلْهُمَةُ بن أدَدٍ، هو طيِّءٌ أبوالقَبيلةِ المشهورةِ». ويُراجع: كتاب سيبويه: ١/ ٣٤٤.
أقولُ ـ وعلى الله أعتمد ـ: وَجُلْهُمَةُ أَيْضًا جدُّ الشَّاعر زهير بن عروة بن جُلهمة المازني المعروف بـ«السَّكْبِ» له ترجمة في الأغاني: ٢٢/ ٢٧٠.
وَجَدُّ صاحبنا (ابنُ حبيبٍ) الأعلى جاهمة بن العبَّاسِ له صُحْبَةٌ، ترجم له الحافظ ابن حَجَرٍ في الإصابة: ١/ ٤٤٦. وذكر الحافظ المِزِّي وغيره: ابنُهُ معاوية بن جاهمة بن العَبَّاس... وقال: «له صُحْبَةٌ» يراجع تهذيب الكمال: ٢٨/ ١٦٢، وطبقات ابن سعدٍ: ٤/ ٢٧٤، والإصابة: ٦/ ١٤٦.

(١) جَمْهرةُ النَّسب لابن الكلبيِّ: ٣٩٥، وجَمْهرةُ أنسابِ العرب لابن حَزْمٍ: ٢٦١.

(٢) الإصابه: ٣/ ٦٣٣، وله ديوانٌ مطبوعٌ ببغداد سنة ١٩٦٨م بتحقيق يحيى الجُبُوري.

والإلْبِيْرِيُّ: نسبةٌ إلىٰ «إلْبِيْرَةَ» بلدةٌ شَهِيرةٌ بالأندلس، قال ياقُوت في «معجم البلدان»: «ومنها عبدُالمَلكِ بن حَبِيْبِ بن سُليمان...»[1].

وهو من سُلَيْمٍ من أنفُسِهِم، وقال ابنُ الفَرَضِيِّ:[2] «وقيلَ: إنَّه من موالي سُليم» ونقل عنه كثيرٌ من المُترجمين. والصَّحيحُ ـ إن شاءَ اللهُ ـ أنَّه من أَنْفُسِهِم، ودَليلُنا علىٰ ذلك أمورٌ، منها:

أولاً: أنَّ عبارَةَ ابن الفَرَضِيِّ ـ رَحمه الله ـ عبارةُ شَكٍّ لا جَزْمٍ، فلم يؤكِّد ذٰلك، والأحكام لا تُبنَىٰ علىٰ الشَكِّ، بل علىٰ الأمر الثابت المتيقن.

ثانياً: أنَّ القاضيَ عياضاً نقل عن ابن حارثٍ أنَّه من أنْفُسِهِم[3]، وَالأَنْدَلُسِيُّون به أدرىٰ.

ثالثاً: أنَّ مابينَه وبين جدّه العبَّاس بن مرداس مُتَّصلٌ وقَلِيْلٌ؛ لقُرب زمانِهِ منه. فمن المستبعد أن يختلط نسبه، ولا يحفظ في تلك المدة القصيرة.

رابعاً: أنَّ ابنَ حَزْمٍ ـ وهو النَّسَّابَةُ النَّاقِدُ ـ قال في «جمهرة أنساب العرب»:[4] «ومن بني الحارث بن بُهثة بن سُلَيْمٍ: بنو ذكوان بن رفاعة بنِ الحارث بن حُيَيِّ بن الحارث بن بُهْثَة بن سُلَيْمٍ... منهم: العبَّاس بنُ مِرداسٍ... وللعبَّاسِ من الوَلد: كنانةُ وجُلْهُمَةُ... ومن ولدِهِ: عبدُالمَلكِ وهـٰرون ابنا حَبِيْبِ بن سُليمان...».

---

(١) معجم البلدان: ١/ ٢٩٠ والمعروف أنَّه من قُرْطُبة ثم تحول إلى طُلَيْطُلَةَ ثم خَرجَ منها إلى المَشرقِ وعادَ إليها، ثم إلى قُرْطُبة كما سيأتي.

(٢) تاريخُ علماءِ الأندلس: ٢٦٩.

(٣) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٢.

(٤) جمهرة أنساب العرب: ٢٦٣.

خامساً: أنَّ المَقَّرِيَّ قال في «النَّفح»[1] ـ لما ذكر القبائل العَربيَّة التي دخلتِ الأندلس ـ: «وأمَّا قيسُ عَيْلَانَ بن إلياس بن مُضر من العَدْنَانيَّة ففي الأندلس كثيرٌ منهم يَنْتَسِبُون إلىٰ العُمُوم، ومنهم من يَنْتَسِبُ إلىٰ سُلَيْمِ بن مَنصُور بنِ عِكْرِمَةَ بنِ خَصَفَةَ بنِ قَيْسٍ كعبدِالمَلكِ بن حَبِيْبٍ السُّلَمِيِّ الفَقِيْهِ. . .».

وأمَّا **الأندلسيُّ**: فمعلومٌ حيث يعدُّ ابن حَبيب في كبارِ رجالاتها، ومشاهيرِ فُضَلائها وعُلمائها، وعدّه ابن سَعيدٍ في«رسالته في فضائل الأندلس» من مفاخر الأندلس الذين يُبَاهَىٰ بهم عُلماء المَشرق قال:[2] «وإنَّك إذا تعرَّضت للمُفاضلة بالعُلماءِ فأَخبرني: هل لكم في الفقهِ مثلِ عبدِالملكِ بنِ حَبِيْبٍ الذي يُعمَلُ بأقواله إلىٰ الآن. .؟!»

وفي ما يَتَعَلَّقُ بنسبه أيضاً: ربما زيد في آبائه (ربيع) بين (حبيب) و(سليمان)[3]. وعرفنا من أُسرته والدَهُ، وعرفنا أنَّ ابنَ حبيبٍ متزوِّجٌ وله بنتٌ وولدان، وعرفنا زوجَ ابنته، كما عَرفنا أخاه هـٰرون بن حَبِيْبٍ.

أمَّا والدُهُ حبيبُ بنُ سُليمان فذكر ابنُ حيَّان في «المقتبس»[4] أنَّه توفي سنة٢٢١هـ وأنَّه كان من فقهاء قُرطبة، وذكر القاضي عياضٌ وغيره[5] أنَّه كان عَصَّاراً، يَعْصِرُ الأدهانَ ويَسْتَخرِجُها.

أمَّا بنتُه فَيظهر أنَّها كانت الكُبرىٰ من بين أولاده؛ لأنَّها وُلِدَتْ قبل رحلته

---

(١) نفح الطيب: ١/ ٢٩١.

(٢) نفح الطيب: ٣/ ١٩٢.

(٣) يراجع: ترتيب المَدارك: ٢/ ٣٠ (بيروت).

(٤) المقتبس: ٨٠. وترجم له ابن الأبّار في تكملة الصِّلة: ١/ ٢٧٧.

(٥) ترتيب المدارك: ٢/ ٣٠ والدِّيباج المذهب: ٢/ ٨

إلىٰ المشرق سنة٢٠٧ أو ٢٠٨هـ ذكرها في قَصيدتِهِ التي يَتَشَوَّقُ فيها إلىٰ بلاده وأهله[١]، وذكر ابنُ الفَرَضِيِّ تاريخ وفاة ابن حَبِيْبٍ عن أبي الحسن بن مجاهد قال[٢]: «أخبرني بذٰلك ختنه أبو عبدالله محمَّد بن قَمَرٍ الزَّاهدُ الفقيهُ» وذكر العُلماء أخاه هـٰرون بن حَبِيْب في قضية تعرَّض لها بسبب أشياء بدرت منه أوجبت إقامة الحدِّ عليه، من طعن في الدِّين، وتهكم وسُخرية، فدافع عنه أخوه عبدالملك عند الأمير دفاعاً كبيراً. . .[٣] أدَّىٰ إلىٰ العَفْوِ عنه وتبرئتِهِ وتخفيفِ عُقُوبتِهِ، وذكره أيضاً ابنُ حَزْمٍ في «جمهرة أنساب العرب» لما ذكر نسب سُليم، فذكر في نسب آل العبَّاس بن مِرْدَاسٍ: عبدَالملك وأخاه هـٰرون[٤] هـٰذا. أمَّا ابناه محمد وعبدالله فذكرهما القاضي عياضٌ ممن سمع منه[٥]. وذكروا أنَّ أُسْرَةَ ابن حَبِيْبٍ ـ رحمه الله ـ كانت تعيشُ في «طُلَيْطُلَةَ[٦]»،

---

(١) سيأتي ذكر ذٰلك في رحلته إلى المشرق إن شاء الله.

(٢) تاريخ علماء الإندلس: ٢٧٢. وذكر في ترجمة يوسف بن يَحيىٰ المغامي تلميذ ابن حَبِيْبٍ (ت ٢٨٨هـ) أنه كان زوج ابنته أيضاً.

(٣) ترتيب المدارك: ٢/ ٣٠.

(٤) جَمهرة أنساب العرب: ٢٦٣.

(٥) ترتيب المدارك: ٣/ ١٢٣. وترجم لهما في موضعيهما هو وغيره.

(٦) المَصدر نفسه، وفي الإحاطة لابن الخَطيب: ٣/ ٥٤٨ أصله من قرية قورت، وقيل: حصن واط، من خارج غرناطة «وبها نشأ وقرأ» وقال أيضاً: «قال ابن خلف أبو القاسم الغافقي: كان له أرض وزيتون بقرية بيرة من طوق غرناطه حبس جميع ذٰلك على مسجد بقرطبة، وله ببيرة مسجدٌ يُنْسَبُ إليه. وكان يَهبِطُ من قريته قورت يوم الاثنين والخميس إلى مسجده ببيرة فيُقرأ عليه ويَنْصَرِفُ إلى قريته»؟!

أقول ـ وعلىٰ الله أعتمد ـ: هذه أخبارٌ غريبةٌ لم أجدها عند غيره، ولا أدري متى كان ذٰلك؟ أي: في أي مراحل حياته؟ لذٰلك أقول: لعلها تداخلت بأخبار غيره؟!.

وأنَّ جدَّه أو أبا جَدِّهِ ـ عندَ مَنْ زاد رَبيعاً ـ هو الذي انتقل إلىٰ «قُرطُبَةَ» دارِ الخِلافةِ والمُلك، وأنَّ «حَبِيْباً» والده يُعَدُّ من فُقَهَائِهَا[1]، ثم انتقلَ حَبِيْبٌ وإخوته في فتنة الرَّبض إلىٰ «إلبيرة[2]»، وفتنة الرَّبض سنة١٩٠هـ، وسنة ٢٠٢هـ في زمن الحَكَمِ الأوَّل بن هِشَامٍ وعُرف بعدَها الحَكَمُ بـ«الرَّبَضِيِّ»[3] وكانت فترة حكمه ما بين(١٨٠ـ٢٠٦هـ)، وقد أُزهقت في هذه الفتنة أرواحٌ، وخُرِّبت فيها ديارٌ، وسادَ البلاد فَوضَىٰ لا مثيلَ لها في ذٰلك الزَّمان، انتُهكت فيها المَحارم، وسُلِبَتْ فيها الأموالُ، وشُرِّدَ الناسُ عن بيوتِهِمْ وديارِهِمْ، ونالَ العَلَمَاءَ وَالفقهاءَ أذىً كثيراً. نعوذ بالله من الفِتَن!

وبعدَ تَمَكُّن الحَكَمِ المَذْكُورِ من الثَّائرين، وانتصاره عليهم، وعَزْمِهِ علىٰ تتبُّعهم بالأندلس، وقتلهم حيث وجدوا، أصابَ النَّاس إرجافٌ وذُعْرٌ وخوفٌ، وَخَرَجَ النَّاسُ أفواجاً بأهليهم وأولادهم، وتفرَّقوا في البلاد، واجتَازُوا العُدوة إلىٰ المغرب، و«تفرق أهل الرَّبض [الثائر] في جَميعِ أَقطارِ الأندلس»[4] و«أكثرُ مَنْ هَرَبَ مِن أهلِ العلمِ والخَيْرِ مِمَّن اتُّهِمَ أو خافَ علىٰ نفسه إلىٰ ناحية «طُلَيْطُلة»، ثم أَمَّنهم الحَكَمُ وَكَتَبَ لهم أماناً علىٰ الأنفس والأموالِ، وأباحَ لهم التَّفَسُّحَ في البُلدان حيثما أحبُّوا من أقطارِ مملكته حاشا «قُرطبة» أو ما يقرب منها». وكان ممن تأثَّر بهذه الفتنة ابنُ حَبِيْبٍ وعائلته كما قال القاضي عياضٌ وغيره.

---

(١) تقدم ذٰلك.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٣، والدِّيباج المذهب: ٢/ ٨ وفيه: «أبوه أبوحبيب».

(٣) نفح الطيب: ٣/ ٢١٤، وغيره.

(٤) البيان المعرب: ٢/ ١١٥.

مولده:

لا نَعرفُ ـ علىٰ التَّحديد ـ متَىٰ كان مولد أَبي مَروان؟ ولا مكان ميلاده؟ ولم يتَّفقوا علىٰ سنةِ وفاتِهِ، ولا علىٰ سِنِّه يوم وفاته، وقد تحدَّث العُلَمَاءُ في ذلك كثيراً، وأقربُ الأقوال إلىٰ الصَّوابِ أنَّ وفاتَه سنة ٢٣٨هـ وأنَّ عمرَه يوم وفاته أربعٌ وستُّون عاماً[١]، علىٰ هـٰذا أكثر العُلماء، فتكون سنةُ ميلادِهِ التَّقْرِيْبِيَّةُ سنةَ ١٧٤هـ. قال الحافظ الذَّهبيُّ في«تاريخ الإسلام»[٢]: «وُلِدَ سَنَةَ نيِّفٍ وسبعين ومائة في حَيَاةِ مالك».

طَلَبُهُ العلمَ وأشهرُ شُيُوخِهِ:

لم يُغادر ابنُ حَبيبٍ الأندلس إلاَّ سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٨هـ[٣]، وهو في حدود السَّابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عُمُرِه، وفي هـٰذه السَّنة أو تلك غادر الأندلس إلىٰ المَشرق، وكان وقتَ رحيلِهِ قد تزوّج وأنجبَ ابنةً، قال ـ من قَصيدةٍ له كتب بها من المشرق:[٤]

فَيَالَيْتَ شِعْرِيْ هل أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً بِأَكْنَافِ نَهْرِ الثَّلْجِ حينَ يَصُوْبُ

---

(١) تاريخ ابن الفرضى(تاريخ علماء الأندلس): ٢٧٢.

(٢) تاريخ الإسلام: ٢٥٨ (وفيات سنة٢٣٨هـ). وفي ترتيب المدارك: ١/ ٤٩ «وعبدالملك بن حَبِيْبٍ إنَّما رحلَ سنةَ ثمانٍ ومائتين، بعدَ موتِ مالكٍ بنحو ثلاثين سنة، وإنما ولد بعد موت مالكٍ بسنتين على ما تراه في أخباره إن شاء الله تعالى»؟!.

أقول: لم يذكر القاضي في ترجمة المذكور شيئاً من ذلك فلعله نسي ذلك. وعلى كلام القاضي تكون سنة ميلاده ١٨١هـ؛ لأن وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩هـ؟!.

(٣) ترتيب المدارك: ٢/ ٣١ (بيروت).

(٤) الإحاطة: ٣/ ٥٥١ وغيرها.

وَحَوْلِيَ أَصْحَابِيْ وبِنْتِيْ وَأُمُّهَا وَمَعْشَرُ أَهْلِيَ وَالرَّؤُوفُ مُجِيْبُ

ولا شكَّ أنَّه في مثل هـٰذا العمر قد استكملَ أهمَّ مبادىءِ العلوم التي كانت سائدةً آنذاك، ومن أهمِّها ـ بلاشَكّ ـ حفظ كتاب الله تَعالىٰ، والتَّفقه بمعانيه، ومعرفة ضُرُوبٍ من وجوه قراءاته السَّائدة في بلاده، وكذٰلك معرفةُ معالم السُّنةِ النَّبويةِ المُطهَّرةِ، فمعرفتها ضرورةٌ ملحَّةٌ لكل طالبِ علمٍ، ثُمَّ الشُّرُوعُ في سائر العلوم من فقه وعربيَّة وتواريخ. . . ولا شكَّ أنّ والدَه يأتي في طليعة شُيُوخه ومقدِّمتهم، ولابدَّ أنَّه اعتَنَىٰ به عنايةً تامةً؛ لمَّا رأىٰ عليه عَلاماتِ النَّجابةِ، وأماراتِ النُّبوغ، ومن شُيُوخه في الأندلس: صَعْصَعة بن سَلاَّم الشَّامِيُّ، وزيادُ بنُ عبد الرَّحمٰن شَبَطَوْن، والغازي بنُ قَيْسٍ. وذكر الحافظ الذَّهبي[1]: أنَّه أخذَ عنهم قليلاً. ويجوزُ أن يكونَ قد أخذ في الأندلس قبل رحلته أو بعدها عن غيرهم لـٰكنْ لم تُحفظ أسماؤهم، ولا شَكَّ أنَّ تَتَبُّعي لأخبارِ ابن حَبيبٍ عامةً، وشُيُوخِهِ وطُلاَّبه ومؤلَّفاته خَاصةً تَتَبُّعٌ ناقصٌ لم يقمْ علىٰ استقراءٍ شاملٍ في المصادرِ، لكنَّه جُهْدُ المُقِلِّ، وهو مَدخلٌ لتقديمِ أثرٍ من آثارِ هـٰذا الرَّجُل حَسْبُ. ولا نعرفُ شَيئا عن رحلاته داخل الأندلس لطلب العلم.

أَمَّا خارجُ الأندلس فَرَحَلَ ابن حَبِيْبٍ سنة ٢٠٨هـ، أو سنة ٢٠٧هـ[2] إلىٰ المشرق لأداء فريضة الحجِّ، وزيارة مسجد النَّبِيِّ ﷺ، وللتَّزوُّد بالعلم، وسماع الحديث من كبار محدِّثي أهلِ المشرقِ، لا سيّما في المدينة الشَّريفة التي يقطنها أكثر أصحابِ مالكٍ ـ رحمه الله ـ الذي ذاع صيته، وعلا ذكره، وانتشر خبره في الآفاق، وعرفه القاصي والدَّاني من طلبة العلم المهتمين

---

(١) تاريخ الإسلام: ٢٥٨.

(٢) ترتيب المدارك: ٢/ ٣١ (بيروت).

بالحديث سماعاً وإسماعاً، وحفظاً وتلقِّياً، وكانت رحلته مروراً بمصر وعودةً إليها، وهي بلدُ العلم والعلماء، ومَحَطُّ رحال الرُّواة والفُضَلاَء، من المتفقِّهة في الدِّين، ونقلة السُّنة، فَأفاد من علمائها، لكنَّه ألقىٰ عصا التِّسيار بالمدينة الشَّريفةِ بعد أداء الحج فيما يظهر، ورَوَىٰ المَقَّرِيُّ في«نفح الطِّيب»[1] لابن حَبيبٍ قصيدةً قالها عند وصوله المدينة في مدح النَّبيِّ ﷺ؛ وأنا لا أدري مدىٰ صحَّة نسبتها إليه؛ لتضمُّنها إطراءً مما شاع في القُرون المتأخرة، منها:

لله دَرُّ عِصَابَةٍ صَاحَبْتُها نَحْوَ المَدِيْنَةِ تَقْطَعُ الفَلَوَاتِ

وَمَهَامِهٍ قد جُبْتُهَا ومَفَاوِزٍ مازِلْتُ أذكَرُهَا بِطُوْلِ حَيَاتِي

وبقي في المَشرق ما يقرُبُ من ثلاثِ سنين[2] يقرأُ ويكتُبُ، ويسَمعُ ويحفَظُ، ويُجَالِسُ العُلَمَاءَ، ويَحْضُرُ حَلَقَاتِ العِلْمِ، في مكَّة والمَدينة ومِصْرَ، ولا أعلم أنهَّ سمع في غيرها من البلاد، فحصَّل من العلم ما أهَّله للتَّصدُّرِ والزَّعامة والإمامة والسِّيادة، ولم يكن ابنُ حبيب بدعاً في ذٰلك، فأغلب علماء الأندلس يفدون إلىٰ المَشرق، ويَرْحَلُون للحَجِّ والزِّيارة، ثم للطَّلَبِ والرِّواية، فإن كان راوياً مُسنِداً مُحصِّلاً قبلَ وفوده طلبَ العُلُوَّ في الإسناد، وكثرة الرّواية من مختلفِ البلادِ؛ فإنَّ ذينك مَطلبان مهمَّان لَدَىٰ المُحَدِّثين، تنوُّع الرِّواية وعُلُوِّ إسنادها من جهة، ثم اختلاف البلاد التي يُسمع فيها من جهةٍ ثانية.

---

(١) نفح الطيب: ١/ ٤٦. وسأذكرها في مبحث (شعره) إن شاء الله.

(٢) عاد ابن حبيب إلى الأندلس سنة٢١٠هـ ترتيب المدارك: ٢/ ٣١ (بيروت) قال: «وانصرف إلى الأندلس سنة عشرة؟» وقوله هذا يناقض ما جاء في آخر الترجمة: «وأنشد له ابن الفرضيِّ قصيدة كتب بها إلى أهله من المشرق سنة عشرين ومائتين» إلاَّ أن يكون عاد إلى المشرق ثانية؟! فالله أعلم. والغالب على الظنِّ أنها خطأ، فلعلها سنة عشرٍ.

والرَّحلةُ في طلبِ العلمِ؛ أو في طلبِ الحديثِ، أو في طلب عُلُوِّ الإسناد صفةٌ غالبةٌ في أكثر المحدِّثين في المَشرق والمَغرب، لكنَّ وَفْرَةَ العُلَمَاءِ وكثرةَ مَراكز الحضارة في المَشرق جعلت المَغاربةَ والأَندلسيِّين أكثرَ حاجةً إليها.

والأندلسيُّون عند عودتهم إلىٰ الأندلس يعودون وقد وصلوا أسانيدهم الأندلسيَّة بأسانيدَ مشرقيَّة لكبار رواة الحديث من أهل المشرق، ويحملون معهم من الكُتُبِ والمُصَنَّفَاتِ المَشرقيَّةِ المُهمَّةِ القَديمةِ والحَديثةِ، بسَمَاعَاتٍ صَحيحةٍ، وإجازاتٍ موثوقةٍ، بخُطُوطِ كُتَّابِهَا، أو أكابرِ العُلماء، كما تَفِدُ معهم أهمُّ المُؤلَّفات الأندلسيَّة إلىٰ المَشرق، وهي في غايةِ التَّوثيق والضَّبطِ والعنايةِ؛ لهـٰذا وذاك كانت رحلةُ ابن حَبِيْبٍ ـ رحمه الله ـ. ولكن نظراً لتعدُّد مناحي الثَّقافةِ عندَ ابن حَبِيْبٍ فهو الفَقيهُ، المحدِّثُ، المُفَسِّرُ، الفَرَضيُّ، النَّحْوِيُّ، اللُّغَويُّ، النَّسَّابةُ.. «رجع إلىٰ الأندلس بعلمٍ جمٍّ وفقهٍ كبيرٍ» لم يكن له الاهتمام التَّام بالرِّواية والحديثِ في زمنٍ وَصَلَ فيه الاهتمامُ برواية الحَديث إلىٰ الذِّروة فهو في عصر الإمام أحمد والبُخاري ومُسلم... فلم يستَثمرْ رحلتَهُ إلىٰ المَشرقِ الاستِثمارَ المَرْجُوَّ منه، ولذا كَثُرت الأحاديثُ الضَّعيفةُ في رواياته؛ نظراً لضعفِ كثيرٍ من شُيُوخه الذين التقىٰ بهم في رحلته التي دامت مايزيدُ علىٰ ثلاثةِ أعوامٍ، وغير ذٰلك من الأسباب كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ. ومن أشهر شيوخه الَّذين ذُكِرُوا في ترجمته في المصادر المختلفة، أو حدَّث هو عنهم في مؤلَّفاته التي وقفت عليها:

١ـ إبراهيمُ بنُ المُنذر بن عبدالله بن المُنذر بن المُغِيْرَةِ بن عبدالله بن خالد بن حِزَامٍ (ت٢٣٠هـ) وجدُّه الأعلىٰ خالدُ بن حِزَامٍ صحابيٌّ، هو أخو«حَكِيْمِ بن

حِزَامٍ يحدِّث المؤلِّف عنه في مؤلَّفاته بـ«الحِزَامِيِّ» وربَّما تحرَّفت إلىٰ (الحرامي) أو(الجذامِي) المقصود هـٰذا. عرَّفتُ به في أول ذكره في هامش الكتاب يراجع: (فهرس الأعلام).

٢ـ إسحـٰقُ بنُ صالحٍ(؟) حدَّث عنه في كتابه«التُّحف والظُّرف» وهو نفسه كتاب «صفة الفِرْدَوس» عن ابن لَهِيْعَةَ (ت١٧٤هـ) ولم أتبين من إسحـٰق هـٰذا؟ هل هو أخو هـٰرُون بن صالحٍ الآتي؟

٣ـ أسدُ بنُ مُوسَىٰ بن إبراهيم بن الوَليد بن عبدالمَلكِ بن مرَوان، حفيدُ الخليفةِ الوَليد بن عبدالملك كما تَرَىٰ، يُعرف بـ«أسد السُّنة» (ت٢١٢هـ) وقد طُعِنَ علىٰ ابن حبيبٍ بأنَّه لم يَسْمَعْ من أسدٍ هـٰذا، كما سيأتي في الحديث عن أقوال العُلَمَاءِ فيه إن شاء الله تعالىٰ. وقد أكثرَ المؤلِّفُ من الرِّواية عنه في مصنَّفاته، في كتابنا هـٰذا وفي غَيره، وأَغلبُ رواياته في كتاب «التُّحَفِ» عنه. عرَّفتُ به في موضعه من الكتاب، يُراجع: (فهرس الأعلام).

٤ـ إسماعيلُ بنُ عبدالله بن عبدالله (مكرر) بن أبي أُوَيْسٍ الأَصْبَحِيُّ المَدَنِيُّ (ت٢٢٧هـ) ابنُ أختِ الإمامِ مَالكٍ، حدَّث عنه المؤلِّفُ في كتابنا هـٰذا وخرَّجتُ ترجمته في موضعه من الكتاب، يراجع: (فهرس الأعلام).

٥ـ أَصْبَغُ بنُ الفَرَجِ بنِ سَعيدِ بنِ نافعٍ الأُمَوِيُّ، مولىٰ عُمَرَ بن عبد العزيز رحمه الله، (ت٢٢٥هـ) تكرَّر ذكره في مؤلفاته، وأكثر من الرِّواية عنه، وهو من أشهر شيوخه، خرَّجتُ ترجمته في موضعه من الكتاب، يُراجع: (فهرس الأعلام)، وهو مذكور من بين (شُرَّاح المُوَطَّأ) خرَّجتُ ترجمته هُناك أيضاً كما سيأتي إن شاء الله.

٦ـ وممن نَقَلَ عنهم: حَبِيْبٌ كاتبُ الإمامِ مالكٍ، نقل عنه في كتابنا في خبر (هيت) المُخَنَّث وغيره. وهو حبيب بن أبي حَبيب، واسم أبي حَبيب مَرْزُوق،

ويُقال: رُزَيْقٌ (ت٢٢٨هـ) عرَّفت به في موضعه، يراجع: (فهرس الأعلام).

٧ـ زِيَادُ بنُ عبد الرَّحمٰن بن زيادٍ اللَّخْمِيُّ (ت٢٠٤هـ) المعرَوف بـ«شَبَطُوْن» وهو لَقبٍ، يُراجع ألقاب ابن الفَرَضِيِّ: ١٠٤، وكشف النِّقاب لابن الجَوزي: ١/ ٢٨٧، ونُزْهَةِ الألباب للحَافظ ابن حَجَرٍ: ١/ ٣٩٥ قال: «بفتحاتٍ» وقد حَرَّفه ابنُ الجَوْزِيِّ ـ رحمه الله ـ إلىٰ (شطون) وليس هٰذا خطأً من النُّسَّاخ؛ لأنهَّ وضعه بين الضَّادِ والعَيْن، وهو يُرتَّب علىٰ حروف المعجم. ومحقِّق كتاب ابن الجوزي (أراد أن يُعربه فأعجمه) عفا الله عنه فرسمه، (شَيَطون) باليَاءَ المُثنَّاة التحتيَّة، والتَّرتيبُ لا يساعده، ولا رسم اللَّفظة في النُّسخة التي اعتمد عليها وهي عندي؟!.

يُعتبر زيادٌ ـ رحمه الله ـ أوَّلَ مَنْ أدخلَ مذهبَ مالكٍ إلىٰ بلاد الأندلس[1]، وهو من تلاميذ مالكٍ، وكان أغلب أهل الأندلس آنذاك علىٰ مذهب الأوْزَاعِيِّ، كذا قالوا. وإن كنتُ أرىٰ أنَّ المذاهبَ لم تتمايز في ذٰلك الوقت بَعْدُ، ولم يشتهر الاتباع للمذاهب فهو إذاً مهَّد الطريق إلىٰ انتشار مذهب مالك هناك، رحمهما الله، وزيادٌ المذكور من شُيُوخِهِ في الأندلس. أخباره في: قُضاة قرطبة: ٣٣، وجذوة المقتبس: ٢٠٢، وترتيب المدارك: ٣/ ١١٦، وبغيه الملتمس: ٢٩٤، والدّيباج المذهب: ١/ ٣٧.

٨ـ صَعْصَعَةُ بنُ سلاَّمٍ الشَّامِيُّ، أبو عبدالله (ت١٩٢هـ). من أقدم شيوخ ابنِ حَبيْبٍ في الأندلس ذكره المؤلِّفُ، وحدَّث عنه في كتابنا هٰذا وغيره. عرَّفتُ به في موضعه من الكتاب، يراجع: (فهرس الأعلام).

٩ـ طَلْقٌ المَعَافِرِيُّ؛ طَلْقُ بن السَّمْح بن شَرحبيل بن طَلْق بن نافعٍ اللَّخميُّ

---

(١) سيأتي أنّ أول من أدخل «الموطأ» للأندلس (غازي بن قيسٍ ت١٩٩هـ) وكلاهما من تلاميذ مالك

المَعَافِرِيُّ المِصْرِيُّ (ت ٢١١هـ). روىٰ عنه المؤلِّف في كتاب «التُّحف..»
وكتاب أدب النِّساء: ١٤٠ في الأول عن ضمامٍ، وفي الثَّاني دون سَنَدٍ.

١٠ـ عبدُالعَزيزِ بنُ عبدِالله بن يَحْيَىٰ بن عمرو بن أويس القُرَشِيُّ المَدَنِيُّ (ت في حدود ٢٢٠هـ). حدَّث عنه المؤلِّف في كتابنا هٰذا وغيره من مؤلفاته. وعرفت به في موضعه، يُراجع: (فهرس الأعلام).

١١ـ عبدالله بن صالح الجهني، كاتب الليث بن سعد، ذكره المؤلف في كتابنا، وعرف به في موضعه. راجع (فهرس الأعلام).

١٢ـ عَبدُاللهِ بنُ عَبْدِالحَكَمِ بنِ أعين بن لَيْثٍ، الفقيه، مولىٰ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه (ت٢١٤هـ) ذكره المؤلِّف، وتكرر ذكره في مؤلَّفاته، عرَّفت به في موضعه يراجع (فهرس الأعلام).

١٣ـ عبدُالله بنُ دِيْنَارٍ؟ انفرد بذكره محمد مخلوف في شجرة النَّور: ٧٤.

١٤ـ عبدُاللهِ بنُ المُبارك؟ كذا في ترتيب المدارك: ٢/ ٣١.

١٥ـ عبدُاللهِ بنُ مُحَمَّد بنِ المُغَيْرَةِ الكُوفيُّ، ساكنُ مصرَ (ت ؟) حدَّث عنه المؤلِّفُ فربَّما قَالَ: «حدَّثني ابنُ المُغِيْرَةِ» وربما سقطت لفظة «ابن» فتبقىٰ «حدَّثني المغيرة»، أو (حدَّثني عبدالله بن المغيره) والمقصود هٰذا، تكرر ذكره في مؤلَّفاته، وعرَّفت به عند أول ذكره، يُراجع: (فهرس الأعلام).

١٦ـ عَبْدُاللهِ بنُ مُوسَىٰ وهو غير (عُبَيْدِاللهِ بنِ مُوْسَىٰ) الآتي كلاهما من شُيُوخه، وربَّما حُرِّفت (عبيدالله) إلىٰ (عبدالله) فاختلط الأمر. وعبدالله هٰذا ابن موسىٰ بن إبراهيم بن طلحة بن عُبَيْدالله، التَّيمِيُّ القُرَشِيُّ الحِجَازِيُّ، أبو محمَّدٍ. (ت ؟) حدَّث عنه في كتابنا هٰذا وفي كتاب «التُّحف..» ولم يَعْرِفْهُ المُحَقِّقُ وأصلحه في بعض المواضع بـ«عُبَيْدالله»؟! وهٰذا غيرُ ذَاك،

عرَّفتُ به في موضعه من الكتاب. يراجع: (فهرس الأعلام) وإنّما استظهرت أن يكون هو المقصود استظهاراً فعسىٰ أن أكونَ مُصِيْباً. فليراجع؟!.

١٧ـ عبدُالله بنُ نافعِ بن ثابت بن عبدالله بن الزُّبير بن العوَّام، القُرَشِيُّ الأَسَدِيُّ الزُّبيريُّ، أبو بكرٍ المَدَنِيُّ، يعرفُ بـ«عبدالله بن نافع الأصغر» (ت٢١٦هـ) ذكره القاضي عياض وغيره في شيوخه. ذكره ابن حِبَّان في الثِّقات. وقال أبو بكر بن أبي خَيْثَمَةَ عن يحيىٰ بن مَعين: «صَدُوقٌ لا بأسَ به». أخباره في طبقات ابن سعد: ٥/ ٤٣٩، وجمهرة نسب قُريش: ٩٤، ٩٥، وثقات ابن حبَّان: ٨/ ٣٤٧ تهذيب الكمال: ١٦/ ٢٠٣ وسير أعلام النُّبلاء: ١/ ٣٧٤، وتهذيب التَّهذيب: ٦/ ٥٠.

١٨ـ عبدُالمَلِكِ بنُ عَبْدِالعَزِيز بن عبدالله بن أبي سلمة المَاجِشُوْنَ القُرَشِيُّ التَّيْمِيُّ مولاهم (ت٢١٢هـ) من أشهر شُيُوخ المؤلِّف، تكرر ذكره في كتابنا هـٰذا وغيره من مؤلَّفاته، عرَّفت به في موضعه من الكتاب. يراجع: (فهرس الأعلام).

١٩ـ عُبَيْدُالله بنُ مُوْسَىٰ بن أبي المختار العَبْسِيُّ الكُوفِيُّ، أبو محمَّدٍ (ت٢١٣هـ) ذكره المؤلِّف في كتابنا هـٰذا، وفي كتابه«التُّحف..» وقد عرَّفت به في موضعه. يراجع: (فهرس الأعلام).

٢٠ـ عليُّ بنُ جَعفرِ بنِ محمَّدِ بن عَلِيِّ بن الحُسين (ت٢١٠هـ)، والده جعفر الصَّادق. ذكره الضَّبِّيُّ في بغية الملتمس: ٣٦٤، وحدَّث عنه المؤلِّف في أدب النِّساء في موضعين: ٢٣١، ٢٩١.

٢١ـ عليُّ بن مَعْبَدِ بن شَدَّادٍ العَبْدِيُّ (ت٢١٨هـ)، حدَّث عنه المؤلِّف في كتابنا هـٰذا وفي كتاب «التُّحف» وعرَّفت به في موضعه من الكتاب. يراجع: (فهرس الأعلام).

٢٢ـ عيسىٰ بن رَزِيْنٍ الكَلاَعِيُّ (؟) حدَّث عنه المؤلِّف هُنَا وفي كتاب «التُّحف..».

٢٣ـ الغازي بن قَيسٍ، أبو محَّمدٍ (ت١٩٩هـ) من أهل قُرطبة، وهو من تلاميذ الإمام مالك رحمه الله، وهو أول من أدخل «المُوطأ» إلىٰ الأندلس، ولم يكن صاحب رواية فيه، لكنَّه سمعه منه، كما سمع من الأوزاعي وابن أبي ذئب، وكان آية في حفظ «المُوَطَّأ». قال القاضي عياضٌ رحمه الله: «روىٰ عنه ابنه، وابن حَبِيْبٍ...» حدَّث عنه المؤلِّف في أدب النِّساء: ٢٥٠، ٢٥٨، والتُّحف. أخباره في ترتيب المدارك: ٣/ ١١٤.

٢٤ـ قُدَامَةُ بنُ مُحَمَّدٍ المَدَنِيُّ الأَشْجَعِيُّ، حدّث عنه المؤلّف في كتابنا، وعرَّفت به في موضعه يُراجع: (فهرس الأعلام) وحدّث عنه أيضاً في أدب النِّساء: ٢٠٨ وغيرهما.

٢٥ـ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَّم الجُمَحِيُّ الأديبُ النَّاقدُ المشهورُ صاحبُ «طبقات فحول الشُّعراء» (ت ٢٣١هـ). ذكره المؤلِّف في كتابنا هـٰذا وغيره. عرَّفتُ به في أول ذكره. يُراجع: (فهرس الأعلام).

٢٦ـ مُطرِّفُ بنُ عبدالله بن سُليمان بن يَسَارٍ، اليَسَاريُّ، الهِلاَلِيُّ، المَدَنِيُّ، مَوْلَىٰ ميمونة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها. (ت٢٢٠هـ) من أشهرِ شُيُوخِ ابنِ حَبِيْبٍ تكرر ذكره في مؤلَّفاته، عرَّفتُ به في أول ذكره. يراجع: (فهرس الأعلام).

٢٧ـ مُعاذُ بنُ عبدِالحَكَم؟ ذكره المؤلِّف هنا وفي «التُّحف..» روىٰ عنه عن مُقاتل.

٢٨ـ المَكْفُوْفُ، اسمُهُ القاسمُ بنُ عبدالله التَّلِّيُّ، منسوبٌ إلىٰ تَلِّ ماسح ـ بالسِّين والحاء المهملتين ـ من قُرىٰ حَلب، حدَّث عنه المؤلِّف في كتابنا هـٰذا وعرَّفتُ به عند ذكره في هامش الكتاب يراجع: (فهرس الأعلام) وحدَّثَ عنه في كتابه صفة الفردوس(التُّحف): ٦، ٥٥، ٦٥، ٦٨، وفي أدب

النِّساء: ٣٤٩ وقال محقِّقه أحسن الله إليه: «لم نهتدِ إلىٰ التَّعريف به».

٢٩ـ هَـٰرُوْنُ بنُ صَالِحِ بنِ إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عُبَيْدِاللهِ، القُرَشِيُّ، التَّيْمِيُّ الطَّلْحِيُّ، المدنِيُّ (ت قبل ٢٢٠هـ) نقل عنه المؤلِّف في «التُّحف» ذكره أيضاً في كتابنا هـٰذا، وعرَّفتُ به في موضعه. يُراجع: (فهرس الأعلام).

٣٠ـ أَبُو مُعَاوِيَةَ المَدَنِيُّ؟ حدَّث عنه في كتابنا هـٰذا ولم أعثر عليه.

٣١ـ أَبُو الحَسَنِ الشَّامِيُّ؟ حدَّث عنه في «التُّحف..» ولم أعثر عليه.

٣٢ـ الحَنَفِيُّ؟ هكذا حدَّث عنه في كتابنا هـٰذا. ولم أعثر عليه.

٣٣ـ التَّقِيُّ؟ هكذا حدَّث عنه في «التُّحف..». ولم أعثر عليه.

وبعد أن حصَّلَ أبو مَرْوَان العلمَ في بلدِهِ، ورَحَلَ إليه إلىٰ بلاد المَشرقِ فأخذ عن جملةٍ من العُلماء كما أسلفنا، وساعده علىٰ التّحصيل حافظةٌ قويةٌ، وقدرةٌ علىٰ الاستيعابِ والفَهمِ، وحُبٌّ في المطالعةِ، وجَلَدٌ علىٰ المُداومةِ، وصَبرٌ وأناةٌ، مع إخلاصٍ في طلب العلم، كلُّ هـٰذا وذاك أَهَّلَهُ للتَّصدُّر، فلمَّا عاد إلىٰ بلده الأندلس التي كان في شوقٍ عظيمٍ إليها يقولُ:[1]

أُحِبُّ بِلَادَ الغَرْبِ والغَرْبُ مُوْطِنِي ... أَلَا كُـلُّ غَـرْبِـيٍّ إلـيَّ حَبِيْـبُ

وكان «قَدْ جَمَعَ علماً عظيماً»[2] «فنزل بلدة إِلْبِيْرَةَ، وقد انتشر سُمُوُّه في العلم والرِّواية»[3] ومكث فيها مُدَّة، وكان قاضي قُرطبة يَحْيىٰ بن مَعْمَرِ بن عِمْرَان بن حَنْبَلٍ الأَلْهَانِيُّ (ت ٢٢٦هـ)[4] لمَّا وَجَّهَه الأميرُ عبدُالرَّحمـٰن بن

---

(١) سيأتي في مبحث شعره إن شاء الله.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ترتيب المدارك: ٤/ ١٤٥ فما بعدها.

الحكم إلىٰ قضاء قرطبة مرّةً ثانية بعد عزله «فلمَّا قدم حَلَفَ أن لا يستبقيَ يحيىٰ ابنَ يحيىٰ، ولا وزانَ الكاتبَ[1]، ولا سَعيدَ بنَ حسَّان[2] القاضي، فبقيت الأحكام معلَّقةً إلىٰ مقدم الأمير، فَبَلَغَهُ، فأنكرَ ذٰلك، فقال له: قد أقسمتُ علىٰ ذٰلك وفي إِلْبيرة رَجُلٌ من أهل العلم والتَّقدُّم ستَغْنَىٰ به عنهم، يعني عَبدَالمَلكِ بنَ حَبِيْبٍ، فأقدمه وانفرد بفتياه» فقدم ابن حَبِيْبٍ قُرطبة فكان ندًّا ليَحيىٰ بن يَحيىٰ في الإفتاء والمشاورة، «وكان الذي بينهما سَيِّئاً جدًّا»[3] وتقدَّمه يَحيىٰ بن يَحيىٰ في المَمَاتِ، فبقي عبدُالملك بعده منفرداً في الإفتاء والزَّعامة والوَجاهة لدىٰ الأمراء مايقرب من أربع سنين حتىٰ لحق بربِّه.

هٰكذا عَادَ عَبدُالمَلكِ إلىٰ قُرْطُبَةَ التي أخرج منها، عادَ إليها مُعَزَّزاً مُكرَّماً وتولىٰ أعلىٰ سُلطة دينية فيها؛ الإفتاء والمشاورة. «وعرض عليه القضاء فامتنع»[4].

وكان مع هٰذا لا يفتأ من المُطالعة والمُراجعة والتَّأليف، والتصدُّر للتَّدريس، فكان من نتيجة ذٰلك سَعَةٌ في المعلومات، وتنوُّعٌ في الثَّقافة، وكثرةٌ في التَّآليف التي خلَّدت في النَّاس ذكرَه، وشهرت أمرَه، وأفادت طلبةُ العلمِ جيلاً بعد جيلٍ، حتىٰ يومنا هٰذا، وأعدادٌ كبيرةٌ من الطلبة لَهَجُوا بالثَّناء عليه، وأكثروا بعد موته من التَرحُّم عليه، وعُدَّ ابنُ حَبِيْبٍ بعدَ ذٰلك من مفاخر الأندلس، ولازالت فتاواه في كتب أهلِ العلمِ مسطورةً، وعلىٰ ألسنتهم مذكورةً، يُؤنَس بها مَعَ فَتَاوىٰ كبارِ أهلِ العلمِ.

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٥.

(٣) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٣.

(٤) المُغرب لابن سعيد: ٢/ ٩٦.

خلاَفُ عبدِالمَلكِ ليَحْيَىٰ بن يَحْيَىٰ:

عَرَفْنَا فِيما سبق أنَّ القاضيَ بقُرطُبَةَ يحيىٰ بن مَعْمَرٍ الألْهَانِيَّ (ت ٢٢٦هـ) حَلَفَ أن لا يسْتَفْتِيَ يحيىٰ بن يحيىٰ... وأنَّه أشار علىٰ الأمير عبدالرَّحمـٰن بن الحكم باستقدام ابن حَبيبٍ من إلْبِيْرَةَ، وأَنَّهُ يُغْنِيه... وكان ذٰلك، وقدم ابنُ حَبِيْبٍ قُرْطُبَةً، ولم يكن قدومُهُ وَتَوَلِّيه هـٰذا المنصب لِيَقَعَ مَوْقِعًا حسناً عند يحيىٰ رحمه الله. وَنَقَلَ ابْنُ الفَرَضِيِّ وغيره أنَّ الذي بينهما كان سيِّئاً. ونقل الحافظُ الذَّهبيُّ[1] عن أحمدَ بن عبدالبرِّ النَّارنجيِّ[2] أنَّ ابنَ حَبِيْبٍ كان كثيرَ المُخالفةِ ليَحيىٰ، وكان قد لَقِيَ أَصبغَ بمصرَ فأكثرَ عنه، وكان إذا اجتَمَعَ مع يحيىٰ بن يحيىٰ، وسعيد بن حسَّان ونظرائهما عند الأميرِ عبدالرَّحمـٰن وقُضاتِهِ فسُئِلوا قال يحيىٰ ما عنده، ـ وكان أسنَّ القوم وأولاهم بالتقدُّم ـ يدفع عليه عبدُالملك بأنَّه سَمِعَ أصبغَ بنَ الفَرج يقولُ كَذَا، فكان يَحْيَىٰ يغمُّه مخالفته له. فلمَّا كان بعضُ الأيَّام جمعهم القاضي في الجامع فسألهم عن مسألة، فأفتَىٰ فيها يَحيىٰ بن يَحيىٰ وَسَعِيد بن حسَّانَ ونظراؤهما، فخالفهما عبدُالملك، وذكر خلافَهُ لهما روايةً عن أصبغَ. وكان عبدالأعلىٰ بن وَهْبٍ من أحداث أهل زمانه، وكان قد حَجَّ وأدركَ أصبغَ بن الفَرَج بمصر، ورَوَىٰ عنه، فدخلَ يوماً بإثر شُورَىٰ القاضِي علىٰ سعيد بن حسَّان، فقال له: يا أبا وَهْبٍ: ما تقول في مسألةِ كَذَا؟ المَسألة التي سألهم فيها القاضي هل تَذكرُ لأَصْبَغَ بن الفَرجِ فيها شيئًا؟ فقال: نَعَمْ، أصبغُ يقولُ فيها كَذَا، وأفتىٰ بموافقة يحيىٰ وسَعِيْدٍ. فقال له

---

(١) تاريخ الإسلام: ٢٥٨.

(٢) منسوب إلىٰ نارنج. بلدة بالأندلس.

سَعِيْدٌ: انظر إلىٰ ما تَقُولُ؟ أنتَ علىٰ يقينٍ من هـٰذا؟ قال: نَعَمْ، قال: فأْتني بكتابك. قال عبدُالأعلىٰ: فخرجت مُسرعاً، ثم نَدِمْتُ، وَدَخَلَ عليَّ الشَكُّ، ثم أَتَيتُ داري، وأخرجتُ الكتابَ من قرطاسٍ، كما رَوَيْتُهُ عن أَصْبَغَ، فسُررتُ، ومضيتُ إلىٰ سَعِيْدٍ بالكتابِ، فقال: تمضِي به إلىٰ أبي مُحَمَّدٍ، فمضَيْتُ به إلىٰ يَحْيىٰ بن يَحْيَىٰ، فأعلمتُهُ، ولم أدرِ ما القِصَّة! فاجتَمَعَا بالقاضي، وقالا: إنَّ عبدَالملكِ يُخالفنا بالكَذِبِ، والمسألة التي خالفنا فيها، عندك هنا رجلٌ قد حَجَّ وَأَدرَكَ أصبغَ، وروىٰ عنه هـٰذه المسألةَ كقولنا علىٰ خلافِ ما ادَّعاه عبدالملك، فَارْدَعْهُ وَكُفَّه. فجمعهم القاضِي ثانياً، وتكلَّمُوا، فقال عبدُالملكِ: قد أَعْلَمْتُكَ ما يقولُ فيها أَصبغُ، فبدر عبدالأعْلَىٰ بن وَهْبٍ، وقال: يَكْذِبُ عَلَىٰ أَصْبَغَ، وأنا رَوَيْتُ هـٰذه المسألة عنه علىٰ ما قال هـٰذان، وهـٰذا كتابي، فأخرجَ المسألةَ، فأخذَ القاضي الكتابَ، وقرأ المسألةَ، وقال لعبدِالمَلكِ ما ساءَهُ من القَوْلِ، وقال: تُفتينا بالكذبِ والخطأِ، وتخالفُ أصحابَكَ بالهوىٰ؟! لولا البُقيا عليك لعاقبتك. ثم قاموا. قال عبدُالأعْلىٰ: فلمَّا خرجتُ مررتُ علىٰ دار ابن رُستُمٍ الحاجبِ، فرأيتُ عبدَالملكِ خارجًا من عِنْدِهِ، وفي وَجْهِهِ الشَّرُّ، فقلتُ: مالي لا أدخُلُ علىٰ ابن رُسْتُم؟ فدخلتُ فلم يَنْتَظِرْ جُلُوسي حتَّىٰ قالَ: يا مسكينُ، من غَرَّكَ؟ أو مَن أدخلك في هـٰذا العَارض؟ مثلُ عبدِالملكِ بن حَبيبٍ وَتُكَذِّبُهُ؟! فقلتُ: أَصْلَحَكَ الله، إنَّما سَألني القاضي عن شَيءٍ، فأَجبتُهُ بما عندي، ثم خَرجتُ من عنده، وكان عبدُالملك قد شَكَا إليه ما وقع، وقال: إنَّ القاضي أتىٰ بِرَجُلٍ ليس من أهل العلم والرِّواية، فأُجْلِسَ معي، وكَذَّبَنِي، وأَوْقَفَني موقِفاً عَجَباً. فقال له ابنُ رُستُمٍ: اكْتُبْ بطاقةً بِالقِصَّةِ، وارفعها للأمير، فَكَتَبَ يَصِفُ القِصَّة، وَيُشَنِّعُ. فأمرَ الأميرُ أن يُبعثَ إلىٰ

القاضي، فبُعثَ فيه، فَخَرَجَتْ وصيَّةُ الأميرِ يقولُ: لك في أمرك أن تُشَاوِرَ عبدالأعْلَىٰ؟! وكان عبدُالملِكِ قد بَنىٰ بطاقته علىٰ أنَّ يحيىٰ بن يحيىٰ أمره بذٰلك. فقال القاضي: ما أمرني أحدٌ بمشاورته، ولكنَّه كان يَخْتَلِفُ إليَّ، وكنتُ أعرفُهُ من أهلِ الخيرِ والعلمِ، مَعَ الحَرَكَةِ والفَهمِ، والحَجِّ والرِّحلةِ، فلم أرَ نفسي في سعةٍ من تَرْكِ مُشاورةِ مثلِهِ، وسألَ الأميرُ وُزَرَاءَهُ عن عبدِالأعْلَىٰ، فأثنَوْا عليه، ووصفُوا علمَه وولاءَه، وكان له ولاءٌ. قال عَبدُالأعلىٰ: فصبَّحتُ يوماً عِيْسَىٰ ابن الشَّهيدِ، فقال لي: قد رُفِعَتْ عَلَيْكَ بطاقةٌ رَدِيْئَةٌ، لكنْ دفعَ اللهُ شرَّهَا».

ومع ما في هٰذا الخبر من سُوءِ العلاقةِ بين الرَّجلين يحيىٰ بن يحيىٰ وعبدِالملك بن حَبِيْبٍ، إلاَّ أنَّه لا يُضْمِرُ أحدُهُما للآخرِ إلاَّ خَيْراً. فاختلافهما ـ هنا علىٰ الأقل ـ عِلْمِيٌّ خَالِصٌ، كَمَا يظهرُ من سياقِ الخَبَرِ، ولا أظنُّ أنَّ ابن حَبِيْبٍ يَتَعَمَّدُ الكذبَ علىٰ شَيخه، فلعلَّه واهمٌ في ذٰلك، أو فَهِمَ منه غير مقصوده أو يكون لأصبغَ ـ رحمه الله ـ أكثرُ من رَأْيٍ... والدَّليل علىٰ سَلاَمةِ السَّريرةِ في كلِّ واحدٍ منهما تِجَاه الآخرِ ما حَكَىٰ القاضي عياضٌ ـ رحمه الله ـ «أنَّ الأميرَ عبدالرَّحمٰن بن الحكم وجد علىٰ ابن حَبِيْبٍ، وقال له: تعلم يدي عندك وأريدُ أن أسألَكَ عن شيءٍ فاصدقني فيه، فقال: نَعَم، لا تَسألني عن شيءٍ إلا صدقتك فيه، فقال: إنَّه قد رُفِعَ إلينا عن يَحيىٰ والقاضِي أنَّهما يعملان علينا في هٰذا الأمر. فقال ابنُ حَبِيْبٍ: قد عَلِمَ الأميرُ ما بيني وبين يَحيىٰ، ولٰكنِّي لا أقولُ عليه إلا الحقَّ، ليس يَحيىٰ بن يحيىٰ إلاَّ مِمَّن يُحْيِي الحقَّ، وكلُّ ما رُفع عليه فبَاطِلٌ، وأمَّا القاضِي...»[1].

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/ ١٣١.

وبالمُقابلِ فإنَّ يَحيىٰ بنَ يَحيىٰ عَامَلَهُ بِمِثْلِ ذٰلك في قصَّةٍ رواها القاضي عياضٌ أيضاً. قال: «وقد ذُكِرَ أنَّ بعضَ جيران ابن حَبِيْبٍ اشْتكَىٰ إليه بأنَّ بعضَ المُتصَرفِينَ لِبَعْضِ الوُزَرَاءِ يُؤذيه ويَستطيلُ عليه، فأمرَ عبدُالملك برصده، فَجِيءَ به إليه، فَضُرِبَ بين يَديه ضَرباً مبرِّحاً، فَشَكَا إلىٰ صاحبه، فكتب إلىٰ يحيىٰ بنِ يحيىٰ، فذكر له ما صَنَعَ ابنُ حَبِيْبٍ بصاحبه وحاشيته، وَسَأَلَهُ تَأْيِيدَهُ عليه عندَ الأمير، فَكَتَبَ إليه يَحيىٰ: ما كنَّا نُعِيْنُكَ علىٰ العلمِ وأهلِهِ، وَأَيْمُ الله لأَقْلاَمُنَا أَنْفَذُ من سِهَامِكُمْ، فَانْصَرِفْ عن رأيكَ والسَّلام.»[1]

ففي هَـٰذين الخَبرين يَتَجَلَّىٰ خُلُوْصُ النِّيةِ، وصِدْقُ الطَّوِيَّةِ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ ـ رَحِمَهُمَا الله ـ وعفا عنَّا وعنهما.

تَصَدُّرُهُ لِلْعِلْمِ وَأَشْهَرُ تلاميذه:

لمَّا عاد ابنُ حبيبٍ إلىٰ الأندلس تَصَدَّرَ لنَفعِ الطَّلبةِ ونَشرِ العلم فَأَقْبَلَ عليه الطَّلبةُ، وهُرِعُوا للأخذ عنه؛ لما تَمَيَّزَ به من تَنَوُّعٍ في الثَّقافة، وَسَعَةٍ في الاطِّلاع، ورحابة الصَّدر؛ لذا كان «يَخْرُجُ من الجَامعِ وخلفَهُ نحوٌ من ثلاثمائة من طالبِ حديثٍ، وفرائض، وفقهٍ، وإعراب، وقد رَتَّبَ الدُّولَ عليهم كُلَّ يومٍ ثلاثين دَوْلةً، لا يُقْرَأُ عليه فيها شيءٌ إلاَّ تآليفه أو «مُوَطَّأ مالك»...»[2] ولذلك لا يستغرب قول أحد طلابه: «لو رأيتَ ما كان علىٰ باب ابن حَبِيْبٍ لازدريتَ غيره»[3] فشاع عِلْمُهُ بالأندلس حتَّىٰ عم أغلب أقطارها، فَصَارَ ـ كما قيل ـ:

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٤.

(٣) من كلام تلميذه يوسف المغامي. كما في المصدر السابق.

«أكثرُ فقهاء الأندلُسِ وشعرائِهم، فعن عبدِالملكِ يأخذُ، وعن مجلِسِهِ ينهضُ»[1] وسواء في ذٰلك حُكَّامُهُم وعامَّتُهُم «فكان أكثرَ من يختلف إليه الملوكُ وأبناؤُهُم من أهلِ الأدب»[2] وكان من بين طلبته:

١ ـ إبراهيمُ بنُ خَلَّادٍ اللَّخْمِيُّ (ت ٢٧٠ هـ).

٢ ـ إبراهيمُ بنُ شُعَيْبٍ الباهليُّ (ت ٢٦٥ هـ).

٣ ـ إبراهيمُ بنُ لَبيبٍ، أبوإسحٰق بن الحائك (ت؟).

٤ ـ إبراهيمُ بنُ يزيد بن قُلزم الأُمَوِيُّ (ت ٢٦٨ هـ).

٥ ـ أحمدُ بنُ مروان الرُّصافيُّ (ت ٢٨٦ هـ).

٦ ـ بقيُّ بنُ مخلد بن يزيد القرطُبيُّ (ت ٢٧٦ هـ).

٧ ـ زكريَّا بنُ شَمُوسٍ، يُعرف بـ«ابن الطَّنجيَّة»، الإشْبِيْليُّ (ت ٣٠٠هـ) قال القاضي عياض: «وهو آخر من روىٰ عنه».[3]

٨ ـ سعيدُ بنُ نمير[4] بن سُليمان بن الحَسن الغَافِقِيُّ (ت ٢٦٩ هـ).

٩ ـ سليمانُ بنُ نَصْرٍ بن منصور المُرِّيُّ (ت ٢٦٠ هـ).

١٠ ـ صباحُ بنُ عبدالرَّحمن بن الفضل بن عَمِيرَةَ العَتِيقِيُّ (ت ٢٩٤ هـ).

١١ ـ عامرُ بنُ معاوية بن عبدالسَّلام بن زيادٍ القُرْطُبِيُّ (ت ٢٧٧ هـ).

١٢ ـ عبدُالأعلىٰ بنُ مُعلَّىٰ الخولاني (ت ؟) ذكره القاضي عياضٌ وقال: أخذ

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٥. (الرِّباط).

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٨. (الرّباط).

(٣) قارن تاريخ وفاة المذكور بقول القاضي عياض: «كان المغامي آخرهم موتًا» وتوفي المغامي ـ رحمه الله ـ سنة ٢٨٨ هـ؟! وانظر في وفياته غيره أيضًا من تلاميذه ممن توفي بعد المغامي.

(٤) في ترجمة ابن حبيب في ترتيب المدارك «نمير»، وفي ترجمته هو سعيد بن نمر. أو «النمر».

عن ابنِ حَبِيْبٍ، ثم نقل عن علي بن الحسن قوله: «أدرَكَ ابن حَبيْبٍ ولم يأخذ عنه»؟!

١٣ ـ عَبدُالجبَّار بنُ فتح بن منتصر البَلَوِيُّ (ت ٢٥٦ هـ).

١٤ ـ عبدُالرَّحمٰن بنُ محمد بن أبي مريم (ت ٢٩٠ هـ).

١٥ ـ عبدُالله بنُ الفرج النُّميريُّ (ت ٢٦٠ هـ).

١٦ ـ عبدالمجيد بنُ عفَّان البَلَوِيُّ (ت ٢٦٨هـ).

١٧ ـ عُبَيْدُ الله بنُ عبدالملك بن حَبيبٍ (ت ٢٩١ هـ) ابن المؤلِّفِ. جاء في ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٣ (عبدالله) وفي ترتيب المدارك: ٤/ ١٤١: «خلَّف ابنين محمدًا وَعُبَيْدَاللهِ»، وذكر وفاته هنا سنة ٢٩١ كما ذكرنا، وفي ص٤٣٥ ذكر عبيد الله أيضًا. وقال: توفي سنة نيفٍ وتسعين؟!. وسنذكر أخاه محمدًا في موضعه إن شاء الله.

١٨ ـ عُبَيْدُاللهِ بْنُ قَمَرٍ الزَّاهدُ: ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك: ٤/ ٤٣٥ هو وأخاه محمدًا، وقال: «وتزوَّج عبيدالله ابنته بعد وفاته» وفي تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٢ «أخبرني بذٰلك ختنه أبوعبدالله محمد بن قَمَرٍ الزَّاهدُ الفقيهُ رحمه الله. فأيُّهما كان ختنه عبيدالله أو محمد؟! أو كلاهما كان ختنًا له.

١٩ ـ عُمَرُ بنُ موسىٰ الكناني الإلبيريُّ (ت ٢٥٧ هـ).

٢٠ ـ فَضْلُ بنُ فضل بن عَمِيرَةَ بن راشد (ت ٢٦٥ هـ).

٢١ ـ كُرْزُ بنُ يحيىٰ بن محرز الصَّدفي (ت في إمرة عبدالرحمن بن الحكم؟).

٢٢ ـ مَالكُ بنُ مَعْرُوفٍ (ت ٢٦٤هـ).

٢٣ ـ مُحَمَّدُ بنُ الحارث بن أبي سعيدٍ القُرْطُبِيُّ (ت ٢٦٠هـ).

٢٤ ـ مُحَمَّدُ بنُ سعيد بن حسَّان (ت ٢٦٦ هـ). والده من كبارِ الفُقَهَاء.

٢٥ ـ مُحَمَّدُ بنُ عبدالبر الكلاي (ت ٢٨٣ هـ).

٢٦ ـ مُحَمَّدُ بنُ عبدالرَّحمن بن إبراهيم بن محمد بن قيس (ت ٢٨٢ هـ).

٢٧ ـ مُحَمَّدُ بنُ عبدالملك بن حبيب (ابن المُؤَلِّف) تُراجع ترجمة أخيه (عبيدالله).

٢٨ ـ مُحَمَّدُ بنُ عمر بن يوسف الكِنْدِيُّ (ت ؟) قال القاضي عياض في ترجمته شرك أخاه يحيىٰ في أكثر رجاله إلا سحنون، وأبا زيد، وابن بُكَيْرٍ، وذكر في شيوخ أخيه يحيىٰ الآتي عبدالملك بن حَبِيْبٍ.

٢٩ ـ مُحَمَّدُ بنُ عَمِيرَةَ العَتِيقِيُّ (ت ٢٧٦ هـ).

٣٠ ـ مُحَمَّدُ بنُ قَمَرٍ الزَّاهد. يراجع ترجمة أخيه عُبَيْدِالله.

٣١ ـ مُحَمَّدُ بنُ وضاح بن بَزِيْعٍ الأُمويُّ (ت ٢٨٧هـ).

٣٢ ـ مُطَرِّفُ بنُ عبدالرَّحمن بن إبراهيم، أبوسعيد الأُمَوِيُّ (ت ٢٨٢ هـ).

٣٣ ـ مُطَرِّفُ بنُ قَيْسٍ (ت ؟).

٣٤ ـ يَحْيَىٰ بنُ رَاشِدٍ، أبوبكر القُرْطُبيُّ (ت في حدود ٢٨٧ هـ).

٣٥ ـ يَحْيَىٰ بنُ عمر بن يوسف الكِنْدِيُّ (ت ٢٨٩ هـ).

٣٦ ـ يُوْسُفُ بنُ يَحْيَىٰ المَغَامِيُّ (ت ٢٨٨ هـ) راوي مؤلَّفات ابنِ حبيبٍ. وقيل: إنَّه زوج ابنته؟

أقوالُ العلماء فيه من مدحٍ وقدحٍ:

ابنُ حَبيبٍ ـ رحمه الله وعفا عنه ـ فيه كغيره صفاتٌ حميدةٌ تستحقُّ أن تذكرَ فتشكرَ، ويثنىٰ عليه فيها وتُنشر، وفيه صفاتٌ ذميمةٌ لا يَستطيع الباحث المُنصف أن يُغفلَها؛ لأنَّه يَجبُ أن يكونَ حاكِماً عَدْلاً ناقدًا مُنْصِفاً يَذْكُرُ المَحَاسنَ والمَسَاوِىءَ؛ وليس كلُّ ما يُقال من مَدحٍ أو قَدحٍ يلزمُ المَمْدُوح أو المقدوح فيه، بل هٰذه الأقوال خاضِعةٌ للدَّرسِ والتَّمحيصِ والتَّحليلِ، ويجبُ أن

لا يُغْفَلَ أثرُ المعاصرة في إصدارِ بعضِ الأحكامِ، وما يُصاحب ذلك من تأثرٍ نَفسيٍّ أو سياسيٍّ أو اجتِمَاعِيٍّ . .

ولقد كَثُرَتْ عباراتُ المَدحِ والقَدْحِ في عَالِمِنَا الإمامِ العلاَّمةِ عبدِالملكِ ابنِ حبيبٍ. فَمِمَّا جاء في مدحه:

ثناؤهم عليه في (حفظه وجودة تأليفه):

فوصفه ابنُ الفَرَضِيِّ[1] بأنَّه «كان . . . مؤلِّفًا مُتقنًا» وقال: «كان عبدُالملكِ حافظًا للفقه علىٰ مذهب مالكٍ، نبيلاً فيه» وقال العُتْبِيُّ:[2] «ما أعلمُ أحداً أَلَّفَ علىٰ مذهبِ أهل المدينةِ تأليفه، ولا لطالبٍ أنفع مِن كُتُبه، ولا أحسن من اختياره». ويصفه ابنُ عَذَارِي بقوله[3]: «وكان ابنُ حبيب أديباً، نحوياً، حافظاً، شاعراً، متصرِّفاً في فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار، وله مؤلفات حسان في الفقه والأدب والتواريخ كثيرةٌ» وبنحو هـٰذا وصفه ابنُ الفَرَضِيِّ في كتابه المُؤلّف في طبقات الأُدباء[4].

وثناؤهم علىٰ كثرة قراءته، وسعة اطلاعه:

كان «جَمَّاعةً كثيرَ الكُتُبِ»[5] وقال ابنُ أبي مَريم[6]: «كان ابنُ حَبيبٍ عندنا نازلاً بمصر، وما كنتُ رأيتُ أدومَ منه علىٰ الكتاب، فدخلتُ عليه في

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٠.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٦.

(٣) البيان المغرب: ١٦٥.

(٤) نقله القاضي عياض في ترتيب المدارك: ٤/ ١٣٠.

(٥) قاله أحمد بن عبدالبرِّ، نقله القاضي عياض في ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٤.

(٦) المصدر نفسه: ٤/ ١٣٠.

القَائلةِ في شِدَّة الحرِّ، وهو جالسٌ علىٰ سُدَّةٍ، وعليه طويلةٌ، فقلت: ما هذا؟! قَلَنْسُوة في مثل هذا؟! فقال: هي تيجانُنا، فقلتُ له: فما هذا الكتاب؟ مَتَىٰ تَقرأُ هذا؟! . . . ».

وقال المغاميُّ[1]: «طرقتُ عبدالملك بن حبيب يومًا بغلسٍ حرصًا علىٰ الاقتباس منه، واستأذنتُ عليه، فأذن لي، ودخلتُ فإذا هو جالسٌ في مجلسه عاكفًا علىٰ الكتب قد أحاطت به، فنظر فيها والشَّمعةُ بين يديه تَقِدُ، وطويلة عليه، فسلَّمتُ فرَّد عليَّ، وقال لي: يا يوسف، أوقد انسلخ الصُّبحُ؟! قلتُ: نعم، وقد صَلَّينا، فقامَ إلىٰ صلاةِ الصُّبح فصلاَّها، ثم رجع إلىٰ مقعده، وقال: يا يوسف ما صلَّيتُ هٰذه الصَّلاة إلاَّ بوضوء العِشاءِ الآخرةِ».

وممَّا يَدُلُّ علىٰ سعةِ علمِهِ وثقافته، وكثرة العُلوم التي يُجيدها، وبراعته ما ذكر القاضي عياض ـ رحمه الله ـ قال[2]: «ذكر بعضُ المشيخة أنَّه لما دنا من مصر في رحلته أصابَ جماعةً من العلماء بارزين لتَلقِّي الرُّفقة علىٰ عادتهم، فكلَّما أطَلَّ عليهم رجلٌ له هيبةٌ ومنظرٌ رجَّحوا الظَّنَّ به، وقضوا بفراستهم عليه، حتَّىٰ رأوه ـ وكان ذا منظرٍ جميلٍ ـ فقال قومٌ: هٰذا فقيهٌ، وقال آخرون طبيبٌ، وقال آخرون: خطيبٌ، فلمَّا كثر اختلافهم تقدَّموا نحوه وأخبروه باختلافهم فيه وسألوه عن ما هو؟ فقال لهم: كلهم قد أصاب، وجميع ما قررتم أُحْسِنُهُ، والخبرة تكشف الحيرة، والامتحان يجلي عن الإنسان. . فلما حَطَّ رحله ولقي الناس شاع خبره، قصده كلُّ ذي علم يسأله عن فنِّه، وهو يجيبه جواب متحقق، وعجبوا من ثُبُوتِ علمِهِ» ووصفه ابن الفرضي بأنه «كان

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٥.

فقيهاً، مفتيًا، نحويًّا، لغويًّا، نسَّابةً، إخباريًّا، عروضيًّا، فائقًا، شاعرًا، محسنًا مرسلاً، حاذقًا، متقنًا»[١].

وأثنوا علىٰ فقهه ومعرفته بأقوال مالك وأصحابه:

بأنَّه «كان ذابًّا عن قول مالكٍ»[٢] وأنَّه «حافظٌ للفقه علىٰ مذهب مالك نبيلاً فيه»[٣] وأنه «كان رأسًا في مذهب مالك»[٤] وقال الحُميديُّ[٥]: «فقيهٌ مشهورٌ، متصرفٌ في فنون الآداب وسائر المعاني، كثيرُ الحديثِ والمَشَايخ». وقال عيسىٰ بن دينارٍ:[٦] «وإنَّه لأفقه ممَّن يريد أن يأخذَ عنه العلم» ووصفه الذَّهبيُّ في تاريخه[٧]بأنَّه: «أحدُ الأعلام، وأنَّه كان مشهوراً بالحذق في مذهب مالك» وقال الصَّفديُّ[٨]: «كان موصوفًا بالحذق في مذهب مالك» إلىٰ غير ذٰلك من عبارات الثَّناء من علماء عصره فمَن بعدهم. وكتابه «الواضحة» عمدةٌ عند المالكية.

وأثنىٰ عليه الوَزيرُ الفتحُ بنُ خَاقَان في كتابه «مطمح الأنفس»[٩] ـ علىٰ

---

(١) ذكره في كتابه طبقات الأدباء ونقله عنه القاضي عياض في ترتيب المدارك.

(٢) قاله إبراهيم بن القاسم بن هلال. يُراجع: ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٤.

(٣) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٣. عن تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) جذوة المقتبس ٢٦٣.

(٦) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٤.

(٧) تاريخ الإسلام: ٢٥٨.

(٨) الوافي بالوفيات: ١٩/ ١٥٨.

(٩) مطمح الأنفس: ٣٦، ونفح الطيب: ٢/ ٦.

طريقته المسجوعة ـ فَقَالَ: «الفقيهُ، العالمُ، أبومَرْوان عبدُالملك بنُ حَبِيْبٍ السُّلَمِيُّ، أيُّ شَرَفٍ لأهل الأندلس ومفخرْ، وأيُّ بَحْرٍ للعلوم يَزْخَرْ، خلَّدت منه الأندلس فقيهًا عالمًا، وأعاد مجاهل جهلها مَعَالِمًا، وأقام فيها للعُلُوم سُوقًا نافِقَهْ، وَنَشَرَ منها أَلْوِيَةً خَافِقَهْ، وجلا عن الألباب صدأ الكَسَلْ، وشحذها شَحْذَ الصَّوارم والأَسَلْ، وتصرَّف في فُنُون العلومْ، وَعَرَفَ كُلَّ مَعْلُومْ، وَسَمِعَ بالأندلُسِ وَتَفَقَّهْ، حتَّىٰ صَارَ أعلمَ من بها وأفقهْ، لَقِيَ أنجابَ مالكْ، وسَلَكَ في مُناظرتهم أَوْعَرَ المَسَالِكْ، حتىٰ أجمع عليه الاتفاقْ، ووقع علىٰ تفضيله الإصْفَاقْ. ويقال: إنَّه لقيَ مالكًا آخرَ عُمُره[1] وروىٰ عنه عن سعيد بن المُسَيِّب..».

اتِّهَامُهُ بِالكَذب:

ومن ناحية أُخرىٰ انتقده جماعةٌ من العُلماء وذمُّوه واتَّهمُوه بالكذب وتألَّبُوا عليه، وبَعضهم حَسَدَهُ لمكانته الاجتماعية والعلمية؛ لقُربه من السُّلطان وكثرة إقبال الطَّلبة عليه. وتمكُّنه من العلوم، وسعة حفظه، وإجادته علومًا ومعارف لم تكن شائعةً عند علماء عصره ومصره. قال ابن حيَّان[2]: «وقرأت بخطِّ عُبادة الشَّاعر قال: كان يحيىٰ بن يحيىٰ وأَصحابه الفُقهاء يَحسدون عبدالملك بن حَبِيْبٍ؛ لتقدُّمه عليهم بعلومٍ لم يكونوا يعلمونها ولا يَشرعون فيها؛ إذ كان مع تقدمه في الفقه والحَديث عالماً بالإعراب واللُّغة، مُفتَنًّا بالعلوم القديمة، متصرِّفاً في الآداب النَّاصعة، له تواليفُ جمَّة في أكثر

---

(١) هٰذا لا يصح بحالٍ؛ لأنه لم يرحل إلىٰ المشرق إلاَّ بعد وفاة مالك بدهرٍ، ونحن نقدر مولد ابن حبيب سنة ١٧٤ هـ، وفاة مالك سنة ١٧٩ هـ. فهل يمكن بعد ذلك أن يلقي مالكاً، ومالكُ بالمدينة وابن حَبيبٍ بالأندلس؟!

(٢) المقتبس: ٤٨.

الفنون، منها كتابه في «إعراب القرآن» وفي «شرح الحديث» وفي الأنساب والنُّجوم وغيرها».

ووصفه أحمد بن عبدالبرِّ بأنَّه طويلُ اللِّسَانِ[1]. وقال ابنُ الفَرَضِيِّ[2]: «لم يقدم علينا أحد أفقهُ من سُحنون إلاَّ أنَّه قدم علينا مَنْ هو أطولُ منه لِسَانًا» يعني ابن حَبِيْبٍ. لذلك وقَفُوا منه موقف النِّد المخالف وأعانهم علىٰ ذٰلك ما اتصف به ابن حَبِيْبٍ ـ عفا الله عنه ـ من طُول لِسَانِهِ وردِّه علىٰ أَفاضل العُلماء بأَقبحِ رَدٍّ وأخشن عبارة، كموقفه من أبي عُبَيْدٍ القاسم بن سَلاَّم، وتغليطِهِ له، ووصفِهِ الإمامَ أبا حَنِيْفَةَ بالكَذِبِ، ونَقلِهِ عن مُطَرِّفٍ عن مالكٍ أنَّه هو وأَصحابه الدَّاءُ العُضَالُ. وذكر ابن حَبِيْبٍ كلَّ ذٰلك في كتابه الذي بين أيدينا (تَفسير غَرِيْبِ المُوَطَّأ). ثم فساد ما بينه وبين مفتي الأندلس يَحيىٰ بن يَحيىٰ، وله سمعةٌ حسنةٌ في أغلب الأوساط الأندلسيَّة.

اتِّهَامُهُ بِالسَّمَاعِ:

واتَّهَمُوا ابنَ حَبِيْبٍ أيضاً بأنَّه كان يأخذُ بالرُّخصة في السَّماع، وكان له جَوَارٍ يُسْمِعْنَهُ، ويظهرُ أنَّ قائلَ هذا استفاده من شعرٍ بهٰذا المَعنىٰ قاله الشَّاعرُ الأندلسيُّ يَحْيَىٰ بنُ حَكَمٍ الغَزَالُ (ت ٢٥٠ هـ)[3]، كل هذا وذاك يمكن

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٢، وقارن بترتيب المدارك.

(٢) المصدر السابق.

(٣) شاعرٌ أندلسيٌّ جميلُ الصُّورة في شبابه وكُهُولتِهِ وَكِبَرِهِ، لذا لُقِّبَ بـ«الغَزَالِ»، وكان كثير الشِّعر، محسنًا، له منزلة عالية عند خلفاء بني أميَّة بالأندلس، يبعث به سَفارة إلىٰ البلاد، ثقة بحكمته وعَقله.. وكان شاعرًا هجَّاءً، وحاول الدكتور محمد رضوان الدَّاية أن يدفع ذٰلك عنه؟! ونَسَبه إلىٰ بكر بن وائل؟! ولا دليل علىٰ ذٰلك هو (البكريُّ) صحيحٌ لكن قد =

الاعتذار عنه إلىٰ حدٍّ ما، وبعضه تحاملٌ ظاهرٌ عليه ـ رحمه الله ـ مثل اتهامه بالرُّخصة في السماع كما سنوضحه إن شاء الله.

تَهَاونُهُ بِالرِّوَايَةِ:

ومن صفاته التي استغلَّها خُصُومه: **(تَهاوُنُه بالرِّواية)** وهذا عَيْبٌ لا يمكن دفعه، وقد استفاض ذكره عندَ العلماء حتَّىٰ عدُّوا ابن حبيبٍ في الضُّعفاءِ من رُوَاةِ الحَدِيْثِ، وقد أَخَذَ العلمَ عن بعضِ العُلماءِ الَّذين لا يَرْقَوْنَ إلىٰ درجةِ العَدالَةِ، وهم إلىٰ الضَّعفِ أقربُ، وبعضهم مُتَّفقٌ علىٰ ضَعْفِهِ، فضلاً عن تهاونه هو نَفسُهُ بالرِّواية حتَّىٰ كذَّبوه. وتختلف عبارات العلماء في تجريحه من مقلٍّ ومستكثرٍ حتىٰ تصلَ إلىٰ درجة وصفه بـ «الكَذبِ» ولا أعلمُ أحداً من العُلماء نفىٰ عنه هـٰذا. ولا يَستطيع المُدافع عنه أن ينفي ما هو قائمٌ وثابتٌ في مؤلفاته، فهي لازمة له، غير مُنْفَكَّةٍ عنه ـ رحمه الله وعفا عنا وعنه ـ. وقد اتَّهمه بالتَّهاون في الرِّواية عُدُوْلُ المُحدِّثين وثقاتهم من صيارفة الحديثِ، وأكابر أهل علم الجرح والتَّعديل، خلفًا وسلفًا من أندلسيين ومشارقة من طلابه فَمَنْ بَعدَهُم، وإن كان هو «أولُ مَنْ أظهرَ الحديثِ بالأَنْدلسِ»[1] لكنَّه

= يكون من آل أبي بكر مثلاً، وقد يكونُ من بكر بن وائل بالوَلاَءِ، فكيفَ يكون عربي الأرومة؟! كما يقول الدكتور. وقد هجا القاضيَ يُحابر، وأخاه مُعاذاً، ونَصْراً الخَصِيَّ، وَزِرْيَاباً المغَنِّيَ. هـٰكذا ذكر المحقِّق فيما جَمَعَهُ من شعره، وهو قليلٌ من كثيرٍ، فإنَّ ديوان الغزال كبيرٌ، جمعه حبيب بن أحمد الشطجيري ورتَّبه علىٰ حروف المعجم. يُراجع: جذوة المقتبس: ٣٧٤، والمُطرب: ١٣٦، والبيان المغرب: ٢/ ٩٣، والمغرب: ٢/ ٥٧. ويظهر أنَّ شعره في هجاء ابن حبيب فقد مع ما فقد من شعره فلم يذكر جامع الدِّيوان أنه عثر علىٰ شيءٍ منه.

(١) تقدم مثل هـٰذا.

أظهره علىٰ غير الطَّريقة التي سار عليها أهل الحديث من التَّدقيق والتَّوثيق، وكثرة التَّحرِّي، وقوة الضَّبط، وتطبيق مبدإ الجرح والتَّعديل تطبيقًا دقيقًا، والحكم علىٰ الأحاديث التي يُوردها في مؤلفاته إلىٰ غير ذلك من المناهج المحكمة التي سار عليها علماء الحديث. فلم يكن ابن حَبِيْبٍ ـ عفا الله عنه ـ يسمع أغلب الكتب والأحاديث التي يرويها عن شيُوخه «وكان يَتَسَاهَلُ في سماعه ويحمل عن طريق الإجازة أكثر رواياته»كذا قال ابن الفَرَضِيِّ[1]، وزاد: «لم يكن لابن حَبِيْبٍ علمٌ بالحديث وكان لا يعرفُ صَحيحه من سَقيمه». وقال أحمد بن خالد بن الجَبَّاب[2]: «لم يخرج ابن وضَّاح لابن حَبِيْبٍ شيئًا، وكان لا يرضىٰ عنه».

أقول: ابنُ وَضَّاحٍ من تلاميذ ابن حَبِيْبٍ وكان ابن وَضَّاحٍ المذكورُ يقولُ: «إنَّه لم يَسْمَعْ من أسد بن مُوسَىٰ»[3].

وأسدُ بنُ مُوسَىٰ من شُيُوخِ ابنِ حَبِيْبٍ، وَأَكْثَرُ رواياته في كتابه «التُّحف..» عنه؟! وروىٰ ابن وضَّاحٍ قال[4]: «قال لي الحِزَامِيُّ[5]: أتاني صاحبكم ابن حَبيبٍ بِغِرَارَةٍ[6] مملوءةٍ كُتُباً فقال لي: هٰذا علمك تجيزه لي؟! فقلت له:

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٠.

(٢) ترتيب المدارك: ٥/ ١٧٤، ١٧٨ (الرِّباط).

(٣) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٩.

(٤) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٠.

(٥) هو إبراهيم بن المنذر سبق ذكره في شُيُوخ ابن حبيبٍ، وذكره القاضي عِياض في شيوخ ابن وضَّاحٍ أيضًا (ترتيب المدارك: ٤/ ٤٣٦ الرباط).

(٦) الغِرَارَةُ: الوعاء، بغين معجمة مكسورة.

نَعَم، ما قرأ عليَّ منه حرفًا، ولا قرأته عليه» مع أنَّ ابنَ وضَّاحٍ كان يُثني علىٰ ابن حَبِيْبٍ، فلعلَّه كان يثني عليه من جوانب، ولا يرضىٰ عنه من جانب التَّساهل بالرِّواية. وروىٰ ابنُ أبي مَريم خبرًا مثل هـٰذا سبق أَنْ ذكرنا أوله، وفي آخر الخبر: «. . . قلتُ فما هـٰذه الكُتُب، متىٰ تَقرأُ هـٰذه؟ فقال: ما أشتغل بقراءتها، قد أجازها لي صاحبها، فخرجتُ من عنده فأتيتُ أسدَ بنَ مُوسىٰ فقلت: أيُّها الشَّيخُ تمنعنا أن نقرأ عليك وتجيزُ غَيرَنَا؟! فقال: أنا لا أرىٰ القراءة فكيفَ أجيزُ؟! إنَّما أخذ مني كُتُبي يكتبُ منها ليردَّها عليَّ»[1]. وهـٰذا معنىٰ قَوْلِ ابنِ وضَّاح: «لم يَسْمَعْ مِنْ أَسَدِ بنِ مُوسَىٰ».

ونَقَلَ أبوالوَليد الباجيُّ، وابنُ حَزْمٍ عن أبي عُمَرَ بنِ عبدالبرِّ أنه كان يُكَذِّبُهُ[2] وقال ابنُ حَزمٍ[3]: «أمَّا أحاديثُ عبدالملكِ بنِ حَبِيْبٍ فكُلُّها هَالِكَةٌ» وعلَّقَ الحافظُ الذَّهبيُّ في تاريخه[4] علىٰ ذٰلك فقال: «وقد أضعف ابن حزم وغيره عبدالملك بن حَبِيْبٍ، ولا ريبَ أنَّه كان ضَعِيفاً» ونقل الحافظُ الذَّهبيُّ عن الصَّدفي[5]: «كان ابنُ حَبِيْبٍ كثيرَ الجمعِ، معتمدًا علىٰ الأخذِ بالحديث، ولم يَكُن يميِّزُهُ ولا يدري الرِّجالَ، وكان فقيهاً في المَسَائل، وكان يُطعن عليه بكثرةِ الكُتُبِ». وقال الصَّدَفِيُّ[6] ـ أيضًا ـ: «قلتُ لأحمد بن خالد: إنَّ

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/ ١٣٠، ويراجع: تاريخ علماء الأندلس: ١٧٠، ١٧١ مع اختلاف العبارة.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٩.

(٣) رسائل ابن حزم: ٤٣٤.

(٤) تاريخ الإسلام: ٢٥٨.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه.

«الواضحةَ» عجيبةٌ وإنَّ فيها علمًا عظيمًا، فما مدخلها؟ قال: أول شيءٍ أنَّه حَكَىٰ فيها مذاهب لم نجدها لأحدٍ من أصحابه، ولا نقلت عنهم، ولا هي في كتبهم» وقال القاضي عياض[1]: «إنَّ أحمد بن خالد لم يكن يرضىٰ عنه»، ونقل الحافظُ ابنُ حَجَرٍ عن الصَّدَفِيِّ[2]: «كَانَ يَطْعَنُ عليه أنَّه يَستجيزُ الأخذَ بالمناولةِ بغيرِ مُقابلةٍ» وَنَقَلَ الحَافظُ الذَّهَبِيُّ ـ رحمه الله ـ عن أحمد بن عبدالبرِّ النارنجي قوله[3]: «هو أول من أظهر الحديث بالأندلس، وكان لايميِّز صَحِيْحَهُ من سَقِيْمِهِ، وَلاَ يَفْهَمُ طُرُقَهُ وَيُصَحِّفُ أسماءَ الرِّجَالِ، وَيَحْتَجُّ بِالمَنَاكِيْرِ، فَكَانَ أَهلُ زمانِهِ لا يرضَون عنه وَيَنْسِبُونه إلىٰ الكَذِبِ» وقال الحُمَيْدِيُّ[4]: «ما أحاديثه إلاَّ غرائب كثيرة» ومثله قال الضَّبيُّ[5].

الدِّفاعَ عنه في بعض ما نُسب إليه:

من أبرز المُدافعين عن ابن حَبِيْبٍ ـ رحمه الله ـ الإمام العلاَّمة منذر بن سَعيدالبَلُّوطي[6] ـ رحمه الله ـ قال[7]: «لو لم يكن من فضل عبدالملك إلاَّ أنَّك

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٩.

(٢) لسان الميزان: ٤/ ٦١.

(٣) تاريخ الإسلام: ٢٥٩.

(٤) جذوة المقتبس: ٢٦٣.

(٥) بغية الملتمس: ٣٦٤.

(٦) عالم أندلسيٌّ شهيرٌ، كان قاضي الجماعة بقرطبة يُنسب إلىٰ فحص البَلُّوط موضع قرب قرطبة، وكان خطيبًا بليغًا مفوَّهًا فقيهًا محققًا. (ت ٣٥٥ هـ).

أخباره في تاريخ علماء الأندلس: ١/ ١٤٤، وجذوة المقتبس: ٣٤٨ وغيرهما.

(٧) ترتيب المدارك: ٣/ ١٣١.

لاتجدُأحداً ممن تُحْكَىٰ عنه معارضَتُه وَالرَّدُّ لقوله ساواه في شيءٍ، وأكثر ماتجد أحدهم يقول: كَذَبَ عَبْدُالملك، وَأَخْطَأَ، ثم لا يأتي بدليلٍ علىٰ ما ذكره».

ومن المُدافعين عن ابنِ حَبِيْبٍ القاضي عياضٌ ـ رحمه الله ـ قال[1]: «وقد ذكرنا في أخبار ابن وهبٍ بعد هذا قصته التي تُحُومِلَ عليه بها، وليس بها ما يقوم به دلالة علىٰ تكذيبه وترجيحِ نقلِ غيره علىٰ نقله. وكان أحمد بن خالد سَيِّءَ الرأي فيه.» يشيرُ القاضي عياض إلىٰ قِصَّةٍ ذكرناها في مبحث الخلاف بين يحيىٰ بن يحيىٰ وابن حَبِيْبٍ.

ودافع القاضي عياض ـ رحمه الله ـ عن ابن حَبيبٍ فيما وقع فيه الشَّاعرُ يحيىٰ بن حكم الغَزَالُ الشَّاعرُ القُرْطُبِيُّ (ت ٢٥٠ هـ) حيث اتَهَمَ ابن حَبِيْبٍ في إباحة السَّماع في شعر قاله نسج عليه ابن الفرضيِّ خيوطَ العَنكبوت فقال[2]: «كان يأخذ بالرُّخصة في السَّماع وكان له جوارٍ يُسمعنه» فقال القاضي عياض[3]: «والأشبهُ بُطلانُ هـٰذه الحكايةِ؛ فإنَّ لابن حَبِيْبٍ كتابًا في كراهية الغناء». كما دافع القاضي عياضٌ ـ رحمه الله ـ عن خبر تكذيبه قائلاً:[4] «وليس بها ما يقوم به دلالة علىٰ تكذيبه وترجيح نقل غيره علىٰ نقله، وكان أحمد بن خالدٍ سيِّءَ الرأي فيه». وردَّ القاضي عياض ـ رحمه الله ـ علىٰ ما ذكر أنَّه روي عن أسد بن موسىٰ، وإبراهيم بن المُنذر كتبهما وهو لم يَسْمَعْهَا عليهما، ولا قابلها مَعَهُمَا، ردَّ القاضي عياض علىٰ مثل هذا الاتهام وأحال إلىٰ كتابه «الإلماع» هذا ما رَدَّ

---

(١) المصدر نفسه: ١٢٩.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٣٠، ١٣١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٩.

به منذر بن سَعيدٍ، والقاضي عياض وهُما في مقدمة المدافعين عن ابن حَبِيْبٍ.

وتكذيب النُّقَّاد والمحدِّثين لابن حَبِيْبٍ إنَّما هو عائد علىٰ تَرَخُّصُه وتسامُحه في الرِّواية بـ «الوِجَادةِ» وهي من أضعف طرق الرِّواية، وهـٰذه الرِّواية الضَّعيفة لا تقبل من ابن حَبِيْبٍ الذي عاش في زمن الذّروة في المحافظة علىٰ السُّنة، في زمن كثرت فيه الفتن، وتهاون كثير من أهل البدع من المسلمين بالرِّواية وتمسَّكُوا بأحاديث ضعافٍ أو موضوعةٍ في حججهم وأقوالهم، وشنُّوا حرباً لا هوادة فيها علىٰ علماء السلَّف، فقد عاش ابن حَبِيْبٍ في ذروة القول بخلق القرآن، لذٰلك كان مذهب السَّلف الصَّالح من أهل السُّنة والجماعة هو التمسُّك الصَّحيح بالسُّنة، والتأكيد علىٰ صحَّة نقلها، ومعرفة الطُّرق والأسانيد ودراسة أحوال الرِّجال جرحاً وتعديلاً؛ للاعتصام بالسُّنة الصَّحيحة بعد الاعتماد علىٰ ظاهر القرآن؛ لردِّ شُبَهِ المخالفين، وقمع بدع المبتدعين. ونظراً إلىٰ تهاون ابن حَبِيْبٍ بالرِّواية وقد عاش في ذٰلك الزَّمن انتقدوه وكذَّبوه ووصفوه بهـٰذه الصِّفات التي سقنا بعضها، مع أنهم امتدحوه هم أنفسهم بجَودة الحفظ، وقُوة الفَهم، وحسن التَّأليف، وجلالة القدر، والذَّكاء والفِطنَةِ وتنوع المعلومات وكثرتها ونفع العامة بالفتوىٰ، والخاصة من طلبة العلم، ونصح الولاة وغيرهم. فأقوالهم فيه هي الإنصافُ بعينه وإن كنَّا لا نجهل أنَّ هناك تحاملاً شديدًا من بعض العلماء علىٰ ابن حَبِيْبٍ لا نزالُ نجهلُ أسبابه ودوافعه الحقيقية. أسأل الله تعالىٰ أن يغفر لنا وله ولهم، ويَعفو عنَّا وعنه وعنهم أجمعين.

وفـاتـه:

توفي ابن حَبِيْبٍ ـ رحمه الله ـ يوم السَّبت لأربعِ ليالٍ مَضَيْنَ من شهر رمضان سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومِائتين في أَوَّل ولاية الأمير محمد ـ رحمه الله ـ كذا

قال ابن الفَرَضِيِّ[1] قال: «أخبرني بذلك أبومحمَّدٍ الباجيُّ وغيرُه، ذكره أحمد، وقال لنا أبوالحسن بن مجاهدٍ، عن أصبغَ، قال لنا سعيد بن فلحون... أخبرنا بذلك ختنه أبوعبدالله محمَّدُ بن قَمَرٍ الزَّاهدُ الفقيهُ ـ رحمه الله ـ وكانت عِلَّتُهُ الحَصَاة، ماتَ وهو ابنُ أَربعٍ وستين سَنَةً».

وفي «ترتيب المدارك»[2] قال القاضي عياضٌ: «وَتُوُفِّيَ ابنُ حَبِيْبٍ في ذي الحجَّةِ سنةَ ثمانٍ وثلاثين، وقيل: تسعٍ وثلاثين ومائتين، وقد بلغ ستًّا وخمسين سنةً. وقال الشِّيرازيُّ: ثلاثًا وخمسين سنةً. وصَلَّىٰ عليه أحمد بن زياد. قاله ابن الفَرَضِيِّ. وقال غَيْرُهُ: صلَّىٰ عليه ابنه يَحيىٰ. وقبرُهُ بقرطبة بمقبرة أمِّ سلمة في قبلة مسجد الضِّيافة. وقال محمَّد بن حارث: توفي سنة سبع وثلاثين ومائتين إلىٰ ستة شهور من ولايةِ محمَّد.».

وما ذكره ابن الفَرَضِيِّ هو اختيار الحافظ الذَّهَبِيِّ[3] وغيره، وهو مؤكَّد بالرِّواية فهو أولىٰ بالاختيار. قال القاضي عياضٌ: ورثاه أبوعُبادة الرَّشَّاش[4] بقوله:

لَئِنْ أَخَذَتْ مِنَّا المَنَايَا مُهَذَّبًا ... وَقَدْ قَلَّ فِينَا مَنْ يُقَالُ المُهَذَّبُ

لَقَدْ طَابَ فِيهِ المَوْتُ وَالمَوْتُ غِبْطَةٌ ... لِمَنْ هُوَ مَغْمُومُ الْفُؤادِ مُعَذَّبُ

ولأحمد بن هانيء فيه:

مَاذَا تَضَمَّنَ قَبْرٌ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... مِنَ التُّقَىٰ وَالنَّدَىٰ يَا خَيْرَ مَفْقُودِ

عَجِبْتُ لِلأَرْضِ فِي أَنْ غَيَّبَتْكَ وَقَدْ ... مَلأْتَهَا حِكَماً فِي البِيْضِ وَالسُّوْدِ

---

(١) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٢.

(٢) هو وما بعده في ترتيب المدارك: ٤/ ١٤١.

(٣) تاريخ الإسلام: ١٦١.

(٤) سيأتي التعريف به إن شاء الله في مبحث (شعره).

آثـــاره:

(أ) مؤلفاته:

وُصِفَ ابنُ حَبِيبٍ بأنَّه «عالم الأَنْدَلُسِ»[1] وأنَّه «كان جَمَّاعاً كثيرَ الكُتُب»[2] يقولُ ابنُ عَذَارِي[3]: «له مؤلَّفاتٌ حِسَانٌ في الفقهِ والأدبِ والتَّواريخ كثيرةٌ». ويقول القاضي عياض[4]: «وأَلَّف ابنُ حَبِيبٍ كتباً كثيرةً حِسَاناً...» قال بعضُهم: قلتُ لعبدِالملكِ: كم كُتُبك التي أَلَّفْتَ؟ قال: ألفُ كتابٍ وخمسون كتاباً. أثنىٰ العُلماءُ علىٰ كُتُبِ ابنِ حَبِيْبٍ، ونالت استحسانهم وإعجابهم، وكتابه «الوَاضِحَةُ» من أكثر كتب المَذهب شُهرةً، وأعظمها قدراً. قال عبدُالأعلىٰ بن مُعلَّىٰ: «هل رأيتُ كُتُباً تحبِّب عبادة الله تعالىٰ إلىٰ خلقه وتعرِّفهم به ككتب عبدالملك بن حَبِيْبٍ؟! يريدُ كتبه في الرَّغائب والرَّهائب»[5].

والسُّؤال هنا: هل صحيحٌ أنَّه أَلَّفَ أَلْفَ كِتَابٍ وخَمسين كتاباً؟! والجوابُ: أن نقولَ: المقصودُ بالكتاب في هٰذه العبارة الملزمةُ من الكتاب أو نحو ذٰلك. وهو القِسْمُ المُشْتَمِلُ علىٰ معنىً خاص داخل الكتاب المجموع، مثل كتاب (الصَّلاة) وكتاب (الزَّكاة)... في كتابٍ في الفقه مثلاً. والدَّليلُ علىٰ ذٰلك قول القاضي عياض لمَّا عدَّد مؤلفاته: «وكتابُ أخيارِ قُريش وأخبَارها وأنسابها»

---

(١) قائله محمد بن عمر بن لبابة، يرويه عن ابن مُزَيِّن. يراجع: البيان المغرب: ١٦٤ وطبقات النُّحاة وغيرها. وتاريخ علماء الأندلس: ٢٧١.

(٢) قائله أحمد بن عبدالبر، الإحاطة: ٣/ ٥٤٩.

(٣) البيان المغرب: ١٦٥.

(٤) ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٧.

(٥) المصدر نفسه: ٤/ ١٢٨.

خمسة عشر كتابًا. فإذا قدَّرنا الكتاب علىٰ تعبيره بست عشرة ورقة، فسيكون كتاب «أخيار قريش» المذكور في حدود خمسين ومائتي ورقة، وهـٰذا حجمٌ مقبولٌ في مثل هذا الموضوع ليس بالصَّغير ولا بالكَبيرِ. وعلىٰ هـٰذا فيمكن أن يقاسَ باقي مؤلَّفاته، ومن المُتَوَقَّعِ أن تكون في حُدُوْدِ خَمسين مؤلَّفاً، وإليكَ ما عرفته منها، مرتبةً علىٰ حروف المُعْجَمِ:

١ ـ أخيارُ قُرَيْشٍ وأخبارُها وأنسابُها.

٢ ـ أَدبُ النِّساءِ (الغاية والنِّهاية) طبع بتحقيق عبدالمجيد تركي بدار الغرب الإسلامي سنة ١٤١٢ هـ، وأفدت من مقدمته كثيراً. جزى الله محققه خيرًا.

٣ ـ إعراب القُرآن.

٤ ـ الباه والنَّساء.

٤ ـ التَّاريخ، في مكتبة بودليانا بأُكسفورد في بريطانيا، يظهر أنه بدأه ابن حبيب، وأتمه تلميذه ابن أبي الرِّقاع إلىٰ سنة ٢٧٤ هـ. يُراجع تاريخ الأدب العربي لبروكلمان، ومقدِّمة أدب النِّساء.

٦ ـ تفسيرُ القرآن.

٧ ـ تفسيرُ المُوَطَّأ (هو كتابنا الذي نقدم له فيما يَظهرُ) سنتحدث عنه حديثًا مفصَّلاً إن شاء الله.

٨ ـ الجامع، لعله هو (شرح الحديث) الآتي.

٩ ـ حُرُوبُ الإسلام.

١٠ ـ الحسبةُ في الأمراض.

١١ ـ الحكمُ والعمل بالجَوارح.

١٢ ـ رغائبُ القرآن والمغازي والحدثان.

١٣ ـ الرُّهونُ والمَغارمُ.

١٤ ـ السَّخاءُ واصطناعُ المعروفِ.

١٥ ـ الرِّياء بالياء المثناة التَّحْتِيَّةِ، وفي بعض المصادر بالباء المُوحدة؟!

١٦ ـ السُّلطانُ.

١٧ ـ سيرة الإمام في المُلحدين.

١٨ ـ شرح الحديث. ذكره ابن خَيْرٍ الإشبيليُّ، والرَّوداني، قال ابنُ خَيْر: «شرح الحديث لعبدالملك بن حَبِيْبٍ ـ رحمه الله ـ حدَّثني به الشيخ أبومحمد بن عَتَّاب ـ رحمه الله ـ إجازةً، عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ. . . وساق سنداً إلىٰ يوسف بن يحيىٰ المغامي تلميذ ابن حَبِيْبٍ عنه، وقال: هو عشرة أجزاء، الأول منها «شرح الموطأ» والثاني: «شرح جامع الموطأ» والجُزء الثَّالث ابتدأ فيه شرح حديث النَّبي عليه السلام، وأخذ كتب أبي عُبَيْدٍ إلاَّ أنَّه خلطها بتقديمٍ وتأخيرٍ وانتحلها وردَّ علىٰ أبي عُبَيْدٍ أكثرها وتَحامل فيها عليه، ثم ذكر علىٰ هٰذا النحو أحاديث الصَّحابة والتَّابعين وخَتَمَ كتب الشَّرح ـ وهو العاشر فيها ـ بكتاب طبقات العلماء» وشرح مَنْ زُنَّ منهم بالأهواءِ، وهو كتابٌ صغيرٌ ذَكَرَ ذٰلك كلَّه أبوعبدالله محمد بن عتَّاب رحمه الله».

١٩ ـ طبقاتُ الفقهاء والتَّابعين (طبقات المُحَدِّثين).

٢٠ ـ غريب الحديث.

٢١ ـ الفَرائضُ. ذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٨٧ (الترجمة العربية) وعنوانه (التَّلخيص في الفرائض) ويُعتبر من أقدم ما وصل إلينا مما أُلِّف في هٰذا الفن إن ثبتت نسبته إلىٰ ابن حَبِيْبٍ، ولا شَكَّ أنَّ لابن حَبِيْبٍ كتاباً في هذا الفن. يراجع: ترتيب المدارك: ٤/ ١٢٨. وقد رواه ابن خير الإشبيلي

في فهرسته؛ بسنده إلىٰ ابن حَبِيْبٍ عن طريق يوسف المغامي تلميذه. لكن هل هو هـٰذا؟! لم أقف عليه بعد.

٢٢ ـ فضائل الصَّحابة.

٢٣ ـ فضائل عُمر بن عبدالعزيز.

٢٤ ـ فضائل مالك بن أنَس.

٢٥ ـ فضائل النَّبيِّ ﷺ وأصحابه.

٢٦ ـ كراهية الغناء.

٢٧ ـ مختصر الطِّبِّ. طبع بعنوان: «الطِّب النبوي» بتحقيق د/ محمد علي البار سنة ١٤١٣ هـ.

٢٨ ـ كتاب المَسجِدَيْن.

٢٩ ـ مَصَابيح الهُدَىٰ. في مكتبةِ المَلك عبدالعزيز التَّابعة للحرس الوطني في مدينة الرِّياض كتابٌ بهـٰذا الاسم، مصوَّر؟! منسوب إليه في الفهرست، وعند الاطلاع عليه ثبت أنه ليس له بأدلة لا يتسع المقام هنا لذكرها.

٣٠ ـ معرفة النُّجوم. منه نسخة في المكتبة العامة بالرّباط رقم ١٨٥ ولم أقف عليه، وهو برواية تَصِلُهُ بيوسف المَغامي إلىٰ ابن حَبِيْبٍ.

٣١ ـ مغازي رسول الله ﷺ.

٣٢ ـ المغازي. هكذا لعله سابقه.

٣٣ ـ مكارم الأخلاق. ذكره ابن خَيْرٍ الإشبيلي في فهرسته: ٢٩٠ وساق إليه سنداً عن طريق تلميذه يوسف المغامي.

٣٤ ـ النَّاسخُ والمَنسوخ.

٣٥ ـ وصف الفردوس (التُّحف والظُّرف) منه نسخة في الأزهرية، وأخرىٰ في

المكتبة المركزيّة بجامعة أم القرىٰ، وطبع في بيروت سنة ١٤٠٧ هـ، وحققه بعض طلبة الدِّراسات العليا في جامعة أم القرىٰ.

٣٦ ـ الوَاضِحَةُ. هو من أشهر مؤلفات ابن حَبِيبٍ[١]. أحال عليها في كتابنا هذا. وذكرها القاضي عياض في «ترتيب المدارك»[٢] فقال: «لم يؤلَّف مثلها» وسُئِلَ يوسف المغامي وقيل له: «لو أوضحت هذا السَّماع في واضحة ابنِ حَبِيبٍ! يريد: مالم يوضحه ابن حَبِيبٍ في كتابه؟ فقال: حاولتُ ذلك فوجدت نفسي معه كمرقِّع الخزِّ باللَّبُّود»[٣] قال الضَّبِّيُّ[٤]: «وله في الفقه الكتاب الكبير المُسَمَّىٰ بـ «الواضحة في الحَديث والمسائل علىٰ أبواب الفقه..».

أقول ـ وَعلىٰ الله أعتمد ـ: يوجد منها قطعة في مكتبة القَرويين بفاس، وأُخرىٰ في مكتبة القيروان بتونس... ولا أعلم أنها تُوجد كاملة، ولا أستَبعدُ وجودَ نُسخٍ منها في مكتبات خاصَّة أو عامَّة لشهرة الكتاب وذيوعه، وهو من الكتب التي رواها عبيدالله عن أبيه عبدالملك المؤلِّف، كما رواه المَغاميُّ عن مؤلِّفه ولم يروه ابن خير في فهرسته؟!

واختصره فضلُ بنُ سَلَمَةَ بن جَريرٍ الجُهَنِيُّ (ت ٣١٧هـ) كذا في جذوة المقتبس: ٢/ ٥٢٠. وفي ترتيب المدارك: ٥/ ٢٢٢: «ومختصر الواضحة زاد فيه من فقهه وتعقب علىٰ ابن حَبِيْبٍ كثيراً من قوله، وهو من أحسن كتب المالكيين» ووالد مؤلِّفه من تلاميذ ابن حَبِيْبٍ.

---

(١) في كشف الظنون: ٢/ ١٩٩٦ «الواضحة في إعراب القرآن» وهو خطأٌ ظاهرٌ.

(٢) ٢/ ٣٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) تاريخ علماء الأندلس: ٢٧٠.

٣٧ ـ الوَرَعُ في العلم. ذكره القاضي عياض ثم ذكر (الوَرَع في المال) فهل هما كتابان؟ ويُوجد من كتابه (الوَرَع) هكذا في المكتبة الوطنية بمدريد بأسبانيا رقم (٥١٤٦) ولم أطَّلع علىٰ الكتاب. ولا أعلمُ مقدار ما فيه من العلم ويظهر أنه صغيرُ الحجم، حَسَب وصفهم له وأنه في إحدىٰ وعشرين ورقة، ولا أدري أيضًا هل هي نسخة كاملة أو قطعة من الكتاب؟!

هـٰذه هي مؤلَّفات ابن حَبِيْبٍ التي ذُكرت في المصادر التي اطلعتُ عليها علمًا بأنَّ كتب ابن حَبِيْبٍ قد يدخلُ بعضها في بعضٍ، وقد يَحملُ الكتابُ الواحدُ أكثرَ من عنوان.

ورحلت كُتُب ابن حَبِيبٍ إلىٰ المَشْرِقِ، فسمعها النَّاسُ علىٰ يد تلميذه الوفي ـ الذي قيل: إنَّه كان صِهْرَه ـ يوسف بن يَحيىٰ المَغَامِي (ت ٢٨٨ هـ) قال عنه أبوالعَرَبِ التَّمِيْمِيُّ في «طبقاته»[1]: «كان المغاميُّ ثقةً، إماماً، عالماً، جامعاً لفنون من العلم، عالمًا بالذبِّ عن مذهب الحجازيين، فقيه البَدَنِ، عاقلاً، وقوراً، قلَّما رأيتُ مثلَ عقلِهِ وأدبِهِ وخُلقِهِ، إن جَلَسَ جَلْسَةً لم يغيِّرها حتىٰ يقومُ.. وقال غيرُهُ: «لا أعلمُ منزلةً يستحقها عالمٌ بعلمٍ أو فاضلٌ بحسنِ مذهبٍ إلا ويوسف بن يَحيىٰ أهلها». رَحَلَ إلىٰ المشرق وأقام بها أَحَدَ عَشَرَ عاماً منها سبع سنين مجاوراً بالحَرَمَيْن، وتَصَدَّر للعِلْمِ بمصرَ، واليَمَن، والقَيْرَوَان، وعاد إلىٰ الأندلس. قال القَصْرِيُّ: «غَابَ المَغَامي إلىٰ المَشرقِ فأقامَ أَحَدَ عَشَرَ عاماً ومَضَىٰ بألفي دينارٍ فأتىٰ وعليه الدَّين؛ أنفقها في طَلَبِ العلمِ».

قال ابنُ الفَرَضِيِّ: «وَرَوَىٰ عن عبدِالملك بن حَبِيْبَ مصنَّفاته» وقال

---

(١) يُراجع طبقات أبي العرب: والخبر وما بعده من ترجمة المغامي في ترتيب المدارك: ٤/ ٤٣٠ فما بعدها.

القاضي عياضٌ: «قال ابنُ فَلْحُون: لمَّا رَحَلَ المَغَامِيُّ إلىٰ اليمن للزُّبَيْرِيِّ ألفاه بحال محنته، فكتب إليه رسالةً وشعراً، وذكر فيه غربتَه وبُعْدَ بلده واستلطفه فيه فدخل عليه، فلما كلَّمه وشاهد عقله وعلمه وبيانه قال له: عزيزٌ عليَّ قصد مثلك إليَّ، وقال: يؤذن لمن أراد السَّماع في دولة يوسف المغربيِّ، فأخبره أنه من وراء أقصىٰ المغرب من جزيرة الأندلس، فاحتفل النَّاسُ، فكان المغاميُّ يقرأُ لهم بأثره بعد انصرافهم من مجلس الزُّبيريِّ فوجدوه بحراً، وسألوه أن يجعلَ لهم دولة بالعشيِّ فأجابهم فسمعوا عليه كتب ابن حبيبٍ».

(ب) شعـــره:

لم يكن ابن حبيبٍ شاعراً مطبوعاً ـ وإن كان ينتمي إلىٰ أسرة عريقة في الشِّعر ـ فجده الأعلىٰ العبَّاس بن مرداس من كبار شعراء الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ وجدَّتُهُ ـ من فوق ـ الخنساءُ الشَّاعرةُ المشهورةُ، وما أثر عن ابن حَبِيْبٍ هي مشاركة شعرية، تدلُّ علىٰ وُجُودِ القريحةِ والاستعداد لدىٰ الرجل لنظم الشِّعر، لكنَّه لا يعدُّ في الشُّعراء، وشعره لا يرقَىٰ إلىٰ درجةِ الإبداعِ الشِّعريِّ وإن كنَّا لا نستطيع الحكمَ علىٰ شعره حكماً قاطعاً؛ لأنَّ ما وصل إلينا من شعره قليل جدًّا لا يكفي لإصدارِ حكمٍ عامٍّ علىٰ شاعريَّته. صنَّفه ابنُ الفَرَضِيِّ مع الأُدباء في كتابه في «طَبقات الأُدباء» «وَجَعَلَهُ صَدْراً فيهم» ووصفه بأنَّه كان «عروضيًّا فائقاً، شاعراً مُحسناً، مُرسلاً حَاذِقاً..»[1] وقال الوزير الفتح بن خاقان في «مَطْمَحِ الأَنْفُسِ»: «وكان له شعرٌ يتكلَّم فيه مُتَبَحِّراً، ويُرَىٰ ينبوعُهُ فيه مُتْفَجِّراً»[2] ومن

---

(١) ترتيب المدارك.

(٢) مطمح الأنفس: ٣٦.

شِعرِهِ ما كَتَبَ به إلىٰ الرَّشَّاش الأديب[1] يستهديه مِدَاداً، ووجه إليه بقارورة كبيرة:[2]

احْتَجْتُ مِنْ حِبْرٍ إِلَىٰ سَقْيَةٍ ... فَامْدُدْ لَنَا مِنْهُ فَدَيْنَاكَا
وَابْعَثْ وَإِنْ قَلَّ بِهِ طَيِّباً ... وَلاَ يَكُنْ دُونَاً فَنَلْحَاكَا
وَلاَ تَهُولَنَّكَ قَارُورَتِي ... فَإِنَّنَا أَقْنَعُ مِنْ ذَاكَا

قال ابنُ سَعِيْدٍ[3]: ومن شعره قولُهُ، وقد شاع أنَّ السُّلطانَ المذكورَ [عبدالرَّحمٰن ابن الحكم] غَنَّىٰ زِرْيَابٌ بين يديه بشعرٍ فأطربه فأعطاه ألف دينار:

مِلاَكُ أَمْرِي وَالَّذِي أَرْتَجِي ... هَيِّنٌ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ فِي قُدْرَتِهِ
أَلْفٌ مِنَ الشُّقْرِ وَأَقْلِلْ بِهَا ... لِعَالِمٍ أَرْبَىٰ عَلَىٰ بُغْيَتِهِ
يَأْخُذُهَا زِرْيَابُ فِي دَفْعَةٍ ... وَصَنْعَتِي أَشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِهِ

وكتب إلىٰ الأمير عبدالرَّحمٰن بن الحَكَم في ليلة عاشوراء[4]:

لاَتَنْسَ لاَيُنْسِكَ الرَّحْمَنُ عَاشُورَا ... وَاذْكُرْهُ لاَزِلْتَ فِي الأَحْيَاءِ مَذْكُورَا
قَالَ الرَّسُولُ صَلاَةُ اللهِ تَشْمَلُهُ ... قَوْلاً وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْحَقَّ وَالنُّورَا
مَنْ بَاتَ فِي لَيْلِ عَاشُورَاءَ ذَا سَعَةٍ ... يَكُنْ بِعِيشَتِهِ فِي الْحَوْلِ مَحْبُورَا
فَارْغَبْ فَدَيْتُكَ فِيمَا فِيهِ رَغَّبَنَا ... خَيْرُ الْوَرَىٰ كُلُّهُمْ حَيًّا وَمَقْبُورَا

---

(١) هو أبوعثمان سعيد بن الفرج المعروف بـ «الرَّشَّاش» مولىٰ بني أمية، وهو القائل:

إنني أكره الهجاءَ وَلَكِنْ ... لِيْ إلىٰ اللهِ فِي هِجَائِكَ قُرْبَة

يراجع: جذوة المقتبس: ٢١١، والمغرب: ١/ ١١٤.

(٢) ترتيب المدارك: ٤/ ١٣٨.

(٣) المُغرب لابن سعيدٍ: ٢/ ٩٦. وغيره وهي مشهورةٌ.

(٤) البيان المغرب: ٢/ ١٦٥، ونفح الطيب: ٢/ ٦.

وَأَنْشَدَ له ابنُ الفَرَضيُّ قصيدة كَتَبَ بها إلىٰ أهلِهِ من المَشرقِ سنةَ عشرٍ ومائتين:[1]

أُحِبُّ بِلادَ الْغَرْبِ وَالْغَرْبُ مَوْطِنِي ... أَلاَ كُلُّ غَرْبِيٍّ إِلَيَّ حَبِيبُ
فَيَا جَسَدًا أَضْنَاهُ شَوْقٌ كَأَنَّهُ ... إِذَا نُضِيَتْ عَنْهُ الثِّيَابُ قَضِيبُ
وَيَا كَبِدًا عَادَتْ رُفَاتًا كَأَنَّمَا ... يُلَذِّعُها بِالكَاوِيَاتِ طَبِيبُ
بَلِيتُ وَأَبْلانِي اغْتِرَابي وَنَأْيَةٌ ... وَطُولُ مَقَامي بالحِجَازِ غَرِيبُ
وَأَهْلي بِأَقْصَىٰ مَغْرِبِ الشَّمْسِ دَارُهُمْ ... وَمِنْ دُونِهِمْ بَحْرٌ أَثَجُّ مَهِيبُ
وَهَوْلٌ كَرِيهٌ لَيْلُهُ كَنَهَارِهِ ... وَسَيْرٌ حَثِيثٌ للرِّكاب دَؤوبُ
فَمَا الدَّاءُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ بِغُرْبَةٍ ... وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ يُقَالَ غَرِيبُ
فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِأَكْنَافِ نَهْرِ الثَّلْجِ حِينَ يَصُوبُ
وَحَوْلِيَ أَصْحَابِي وَبِنْتِي وَأُمُّهَا ... وَمَعْشَرُ أَهْلِي وَالرَّؤُوفُ مُجِيبُ

قال المَقَّريُّ في «نَفْحِ الطِّيب»[2] وكَتَبَ إلىٰ الزَّجَّالي[3] رسالة وصلها بهـٰذه الأبيات:

كَيْفَ يُطيق الشَّعْرَ من أَصْبَحَتْ ... حَالَتُهُ الْيَوْمَ كَحَالِ الغَرِقْ
والشِّعرُ لا يَسْلُسُ إِلاَّ علىٰ ... فَرَاغِ قَلْبٍ وَاتِّساعِ الْخُلُقْ

---

(١) ترتيب المدارك: ٤/ ١٣٩.

(٢) النفح: ٢/ ٧، ٨، والأبيات في طبقات النُّحاة للزُّبيدي: ٢٨٣، ومطمح الأنفس: ٢٣٣، وإنباه الرُّواة: ٢/ ٢٠٦.

(٣) هو محمد بن سعيد الزَّجَّالي، بربريُّ الأصل، عربيُّ الثَّقافة واللِّسان، كان ذكيًّا فصيحًا حافظًا، لُقِّبَ بـ «الأصمعي» لذلك. له أخبارٌ وأشعارٌ وفوائدُ في المغرب لابن سعيد: ١/ ٣٣٠، ونفح الطِّيب، وغيرهما. وقوله: «بأدنىٰ العَنَقْ» العنق نوع من السَّير.

فَاقْنَعْ بِهَذَا القَوْلِ مِنْ شَاعِرٍ ... يَرْضَىٰ مِنَ الحَظِّ بِأَدْنَىٰ العَنَقْ
فَضْلُكَ قَدْ بَانَ عَلَيهِ كَمَا ... بَانَ لِأَهْلِ الأَرْضِ ضَوْءُ الشَّفَقْ
أَمَّا ذِمَامُ الوُدِّ مِنِّي لَكُمْ ... فَهُوَ مِنَ المَحْتُومِ فِيمَا سَبَقْ

قال المَقَّرِيُّ: وحُكِيَ أَنَّه قال في دخوله المَشْرِقَ ـ وحضر بعض الأكابر فَازْدَرَاهُ مَنْ رآه ـ [فقال]:

لاَ تَنْظُرَنَّ إِلَىٰ جِسْمِي وَقِلَّتِهِ ... وَانْظُرْ لِصَدْرِي وَمَايَحْوِي مِنَ السُّنَنِ
فَرُبَّ ذِي مَنْظَرٍ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ ... وَرُبَّ مَنْ تَزْدَرِيهُ العَيْنُ ذُو فِطَنِ
وَرُبَّ لُؤْلُؤَةٍ فِي عَيْنِ مَزْبَلَةٍ ... لَمْ يُلْقَ بَالٌ لَهَا إِلاَّ إِلَىٰ زَمَنِ

وأنشد له المَقَّرِيُّ في «النَّفح»[1]: وما أَحْسَنَ قَوْلَ عالِمِ الأَنْدَلُسِ المالكيِّ اللَّبيبِ عبدالملك السُّلميِّ المشهور بـ «ابن حَبِيْبٍ»:

للهِ دَرُّ عِصَابَةٍ صَاحَبْتُهَا ... نَحْوَ المَدِينَةِ تَقْطَعُ الفَلَوَاتِ
وَمَهَامِهٍ قَدْ جُبْتُهَا وَمَفَاوِزٍ ... مَازِلْتُ أَذْكُرُهَا بِطُولِ حَيَاتِي
حَتَّىٰ أَتَيْنَا القَبْرَ قَبْرَ مُحَمَّدٍ ... خَصَّ الإِلَٰهُ مُحَمَّدًا بِصَلَاةِ
خَيْرُ البَرِيَّةِ وَالنَّبِيُّ المُصْطَفَىٰ ... هَادِي الوَرَىٰ لِطَرَائِقِ الجَنَّاتِ
لَمَّا وَقَفْتُ بِقُرْبِهِ لِسَلَامِهِ ... جَادَتْ دُمُوعِي وَاكِفَ الْعَبَرَاتِ
وَرَأَيْتُ حُجْرَتَهُ وَمَوْضِعَهُ الَّذي ... قَدْ كَانَ يَدْعُو فِيهِ فِي الخَلَوَاتِ
مَعَ رَوْضَةٍ قَدْ قَالَ فِيهَا إِنَّها ... مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَوْضَةِ الجَنَّاتِ
وَبِمَنْزِلِ الأَنْصَارِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ ... بَيْتُ الهِدَايَةِ كَاشِفُ الغَمَرَاتِ
وَبِطَيْبَةٍ طَابُوا وَنَالُوا رَحْمَةً ... مَعْنَىٰ الكِتَابِ وَمُحْكَمِ الآيَاتِ

---

(١) نفح الطيب: ١/٤٦.

وَبِقَبْرِ حَمْزَةَ والصَّحَابَةِ حَوْلَهُ ... فَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مُنْهَمِرَاتِ
سَقْيًا لِتِلْكَ مَعَاهِدٌ شَاهَدْتُهَا ... وَشَهِدْتُها بِالخَطْوِ واللَّحَظَاتِ
لاَزِلْتُ زَوَّاراً لِقَبْرِ نَبِيِّنا ... وَمَدِينَةٍ زَهْرَاءَ بِالبَرَكَاتِ
صَلَّىٰ الإِلَهُ علىٰ النَّبيِّ المُصْطَفَىٰ ... هادِيْ البَرِيَّة كَاشِفِ الكُرُبَاتِ
وَعَلَىٰ ضَجِيْعَيْهِ السَّلام مُرَدِّدًا ... مَا لاَحَ نُورُ الحَقِّ في الظُّلُمَاتِ

هٰكذا أوردها المَقَّرِيُّ لابن حَبِيْبٍ، ولا أظنُّ أنَّ نسبتها إليه صَحِيْحَةٌ؟!؛ وفي القصيدة تجاوزات شرعيَّةٌ على ما جرت به عادة المتأخرين.

منها: أنَّ النَّاظمَ خَصَّ زيارةَ القبرِ بقوله: (حتَّىٰ أَتَيْنَا القَبْرَ) وقوله: (لاَزِلْتُ زَوَّاراً لقبر) وعُلَماءُ السَّلفِ وأهلُ الحديثِ يَخُصُّونَ المَسْجِدَ بالزِّيارة ويشدُّون الرِّحال إليه لا إلىٰ القبر.

ومنها: هٰذا الإطراء للنَّبيِّ ﷺ في قوله: (كَاشِفُ الكُرُبَاتِ) وَمَعْلُوْمٌ أنَّ (كَاشِفُ الكُرُبَاتِ) لا تُقال عند الإطلاق إلاَّ لله جلَّ جلاله، ودعك من تأويلات الصُّوفية أهلِ الظاهرِ والباطنِ؛ فالحقُّ أبلجُ. ولله المنَّة.